الجمهوريـــة الجزائـــريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليـــــم العالـــي والبحـــث العلمـــي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

المركز الجامعي عبدالحفيظ بوالصوف لميلة

معهد الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المرجع: .....

البعد الإديولوجي وتمظهرات الهوية في رواية كولونيل الزبربر - للحبيب السائح -

مذكرة معدة استكمالا لمتطلبات نيل شهادة الماستر

الشعبة: أدب عربي

التخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

إعداد الطالبة:
- نجاة طويل

إشراف الأستاذة:
سليمة خليل

السنة الجامعية: **2016/2015**

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الإهـــــــداء:

اللهم لك الحمد اللهم صلي على سيّدنا محمد عليه أزكى الصلاة أهدي هذا العمل إلى:

من تعجز الكلمات عن تقدير فضلهما في تربيتي ورعايتي وتهديبي وانبثقت على أيديهما ثقتي بنفسي والدي الغاليين.

إلى الذي أنار لي الشموع لأشقف بها سراديب الظلام زوجي.

إلى إخوتي وأخواتي.

إلى زملائي وزميلاتي.

إلى كل من عرفتهم طوال مشوار حياتي.

كلمة شكـــــر:

مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلّم: "من لم يشكر الناس لم يشكر الله ".

أتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذة المشرفة: " سليمة خليل"

لما منحته من توجيهات وإرشادات لإخراج هذا الجهد إلى النّور.

إلى كل أعضاء لجنة المناقشة الذين تكرّموا بقراءة هذا البحث وإثرائه بملاحظاتهم وتقويمه بتوجيهاتهم.

وإلى كل من ساهم من قريب أو من بعيد في إنجاو هذا العمل ولو بكلمة

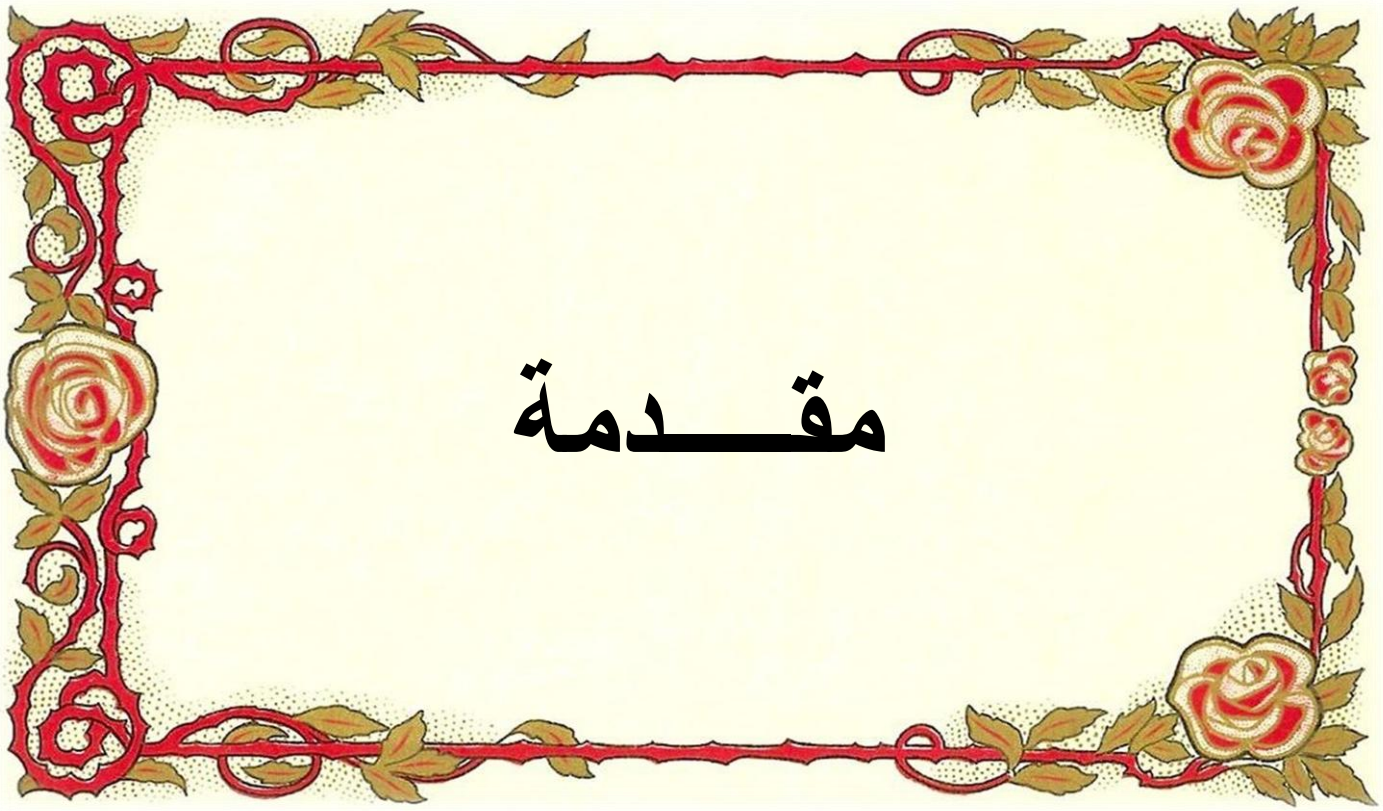
مقـــدمة

مقدّمة:

تعد الروّاية من أكثر النصوص الأدبيّة استحضارا للمعالم التاريخية والمظاهر الإجتماعيّة والأنساق الفكرية والإيديولوجية تقدّم للقارئ وفق رسالة فكرية أدبيّة تعتمد التشكيل السّردي الفني المبني على عناصر متباينة هدفها ضمان مقروئيتها وخلق متعة جمالية لمتلقيها، كل هذه الإعتبارات جعلت من النّص الروائي يتميز عن باقي الأجناس الأدبيّة، وذلك لارتباطه الوثيق بالمجتمع وهذا ما يعطي للكاتب قدرة في تصوير الواقع ضمن المسار التاريخي، ولهذا ارتأيت أن يكون الموضوع الموسوم بالبعد الإيديولوجي وسؤال الهوية" في رواية كولونيل الزبربر للكاتب الجزائري لحبيب السائح موضوعًا للدّراسة، إذ تهذف إلى إبراز هذّه الرواية من الأنساق فكرية وإيديولوجية ومضامين سياسية والإجتماعية بالإضافة إلى إبراز المغيّب والغوص فيه وكسر حاجز الصمت الذي يعاني منه المجتمع الجزائري.

وتقوم هذّه الدّراسة في مجملها بمعالجة مفهومين من أبرز المفاهيم السياسية والفلسفية وهما: مفهوم الإيديولوجيا ومفهوم الهوية وبيان العلاقة الجدلية القائمة بينهما.

ومن الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع هو الرّغبة والميل إلى معرفة طبيعة الأنساق الإيديولوجيّة في ثنايا الخطاب الرّوائي، وكذلك إبراز جهود الكاتب ومحاولاته في المحافظة على مقوّمات الشخصية الوطنية والتصدي لمشروع الفتنة الذي تتخذ منه أطراف براغماتية وسيلة لزعزعة أمن واستقرار المجتمع، فإذا كانت تلك أهم الدّوافع الذاتية فإن الدوافع الموضوعيّة مرتبطة بقيمة الموضوع العلمية والمعرفية خاصة في إضافة بعض الخصوصيات والخلفيات النظرية في حقل الدّراسات الأدبيّة لما يتيحه من أدوات تمكن الدارس بالبحث في استراتيجيّة الحضور الإيديولوجي وتداخله مع مقوّمات المجتمع الجزائري.

وبطبيعة الحال فكل باحث يحاول الكشف عن خبايا كثيرًا ما تتبادر إلى ذهنه مجموعة من التساؤلات نوجزها في مايلي:

ــ ما هي الأبعاد الإيديولوجية التي جسدتها الرّواية؟

ــ أي هذه الأبعاد برز حضوره أكثر؟

ــ ما مدى تأثير هذه الأبعاد في البناء السّردي للرّواية؟

ــ وما هي طبيعة الشخصيات التي وظّفها الكاتب؟

ــ وهل استطاعت هذه الشخصيات التمسك بمبادئ الهوية الجزائرية خاصة في مواجهتها للآخر المتطرّف وحمايتها من الضياع والتشتت؟ أم أنها قدّمت تنازلات فرضتها ظروف قهرية؟

ولما كانت الخطّة لزاما من لوازم البحث العلمي جاءت آفاق هذا البحث منتظمة في مقدّمة، فصلين، خاتمة.

أما الفصل الأول الذي أتناول فيه الجانب التنظيري لهذه الدّراسة، حيث اُستهل بتقديم مفهوم الإيديولوجيا من زاوية النقد الماركسي والسوسيولوجي وكذلك النقد العربي وبينت كذلك علاقة هذا المفهوم بالرّواية من جهة وبالأفكار السياسية من جهة أخرى ثم تطرّقت بعد ذلك إلى تناول مصطلح الهوية وعلاقتها بالسياق الإيديولوجي والبناء السّردي، أما الفصل الثاني فقد خصصته للجانب التطبيقي الذي تضمّن مبحثين الأوّل تعرّضت فيه إلى أهم الأنساق الإيديولوجية التي وقفت عندها الرّواية، أما المبحث الثاني فقد قمت بوصف تمضهرات الهوية وعلاقتها مع بعض المفاهيم: كالتاريخ الإيديولوجيا، السّرد، ثم خلصت بعد ذلك إلى خاتمة جمعت فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

ولمعالجة هذه الخطة إستعملت المنهج سوسيو نصي، وذلك لإهتمامه بالبينة السوسيولوجيّة للمجتمع الجزائري في تركيباته وصراعاته وانكساراته بالإضافة إلى اشتغاله على البنيّة الجمالية والفنيّة للرّواية، كما أهذف من خلال هذا المنهج إلى رصد رؤية الكاتب بإلقاء الضوء على الخلفية الإجتماعية والتاريخيّة للنص وبالتالي فقد ساعدني على تفكيك بنيات النّص واكتشاف الدلالات التي ينتجها، وبذلك يعكس رؤية الكاتب للمجتمع ونقله إلى المتلقي عبر الخطاب الرّوائي.

ولأتمكن من الإلمام بموضوع البحث بجانبيه النظري والتطبيقي، اعتمدت على بعض المصادر والمراجع التي ارتأيت أنها أساسية وضرورية وتصب مباشرة في الموضوع أذكر منها:رواية كولونيل الزبربرللحبيب السائح، النقد الرّوائي والإيديولوجيا لحميد لحميداني وكذلك مفهوم الإيديولوجيا لعبد الهر العروي، الهوية والسّرد بول ريكور، والهوية لحسن حنفي حسنين وكذلك أزمة الإيديولوجيات السياسية لأمين حافظ السعدي.

أما عن الصعوبات التي واجهتني في البحث فلن أتحدث عن صعوبة الحصول على المصادر والمراجع وقلّتها، لأنه في اعتقادي لا يجب التعرّض لمثل هذه القضايا وإلا فما الفرق بين الباحث عن المعرفة والمستهلك لها، والصعوبة التي تجدر الإشارة إليها وتكررت معي كثيرا في البحث خاصة في الجزء التطبيقي هي عدم صعوبة فهم بعض دلالات الرّواية بالإضافة إلى ضيق الوقت.

وبطبيعة الحال لم أكن أوّل من خاض في غمار هذه الدّراسة بل سبقني إليها الكثير من الدّارسين أذكر منهم: حداثة السّرد والبناء في رواية " ذاكرة "الماء لوسيني الأعرج للباحثة آمال السعودي وكذلك الإيديولوجيا واليوتوبيا في الأنساق المعرفية المعاصرة للباحث عبد الله عبد الوهاب محمّد الأنصاري ومن المؤلفات أذكر: الخطاب الرّوائي

لميخائيل باختين، الإيديولوجيات وبنية الخطاب في روايات عبد الحميد بن هدوقة لعمر عيلان.

وفي الأخير وإن كان من واجب الباحث الشكر والعرفان فإنني أدرك جيدا بأن الشكر لا يوفيها حقها، وقد كانت دعامة لأفكار البحث ومصدر منيرا للسير في انجازه كانت بحق سند للبحث فلها مني كريم الفضل وجازاها الله عن الباحثين الناشئين في المستقبل خيرا الأستاذة "سليمة خليل"، كما أتوجه بشكري إلى أستاذة معهد الآداب واللغات بالمركز الجامعي ــ عبد الحفيظ بوالصوف ــ ميلةــ الذين أفادوني بتوجيهاتهم وارشاداتهم العلمية القيمة.

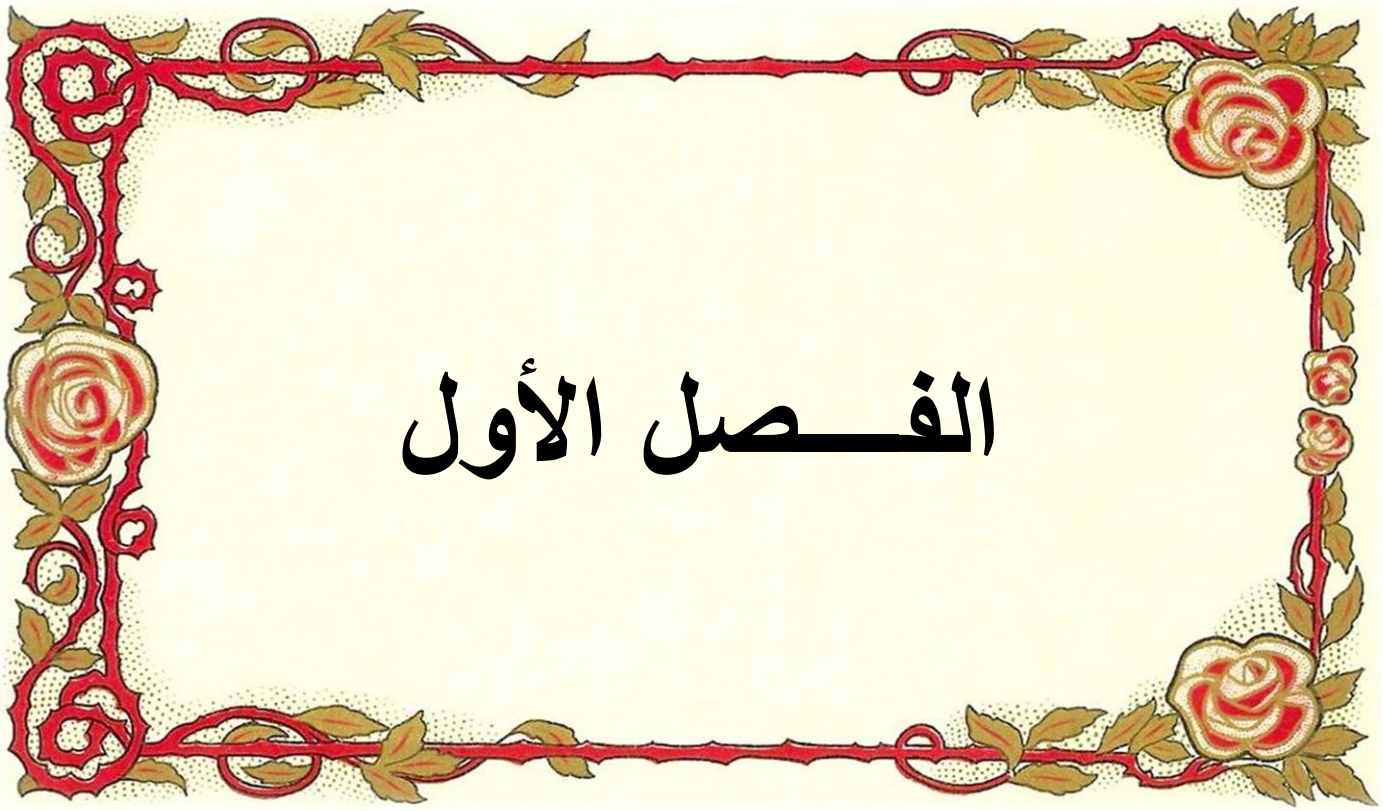
الفـــصل الأول

المبحث الأول:الإيديولوجيا

1:مفهوم الإيديولوجيا

عرف مصطلح الإيديولوجيا الكثير من التحليلات والتفسيرات، ووظّف من طرف المفكرين والفلاسفة والباحثين في مختلف مجالات المعرفة، وبالرغم من تداوله وانتشاره الواسع ظل محفوفاً بالغموض وعدم الاستقرار في صيغة مفهوميّة واحدة تحدد وتضبط إطاره المعرفي، وتضّنفُهُ ضمن مستوى ثابت، وسنحاول في هذا الفصل تحديد بعض المفاهيم التي تميزه مع التركيز في علاقته بالرّواية.

أ/ بدايات المفهوم:

تدل كلمة الإيديولوجيا في المعجم الفلسفي :«على علم الأفكار وموضوعها دراسة الأفكار والمعاني، وخصائصها وقوانينها وعلاقاتها بالعلامات التي تعبّر عنها ، والبحث عن أصولها بوجه خاص»[1]

تشير الدراسات إلى أنّ الظهور الأوّل للإيديولوجيا كان على يد الباحث الفرنسي "دوستوت دوتراسي"سنة 1796، وكان قصده من ذلك حسب مدلوليّة اللفظ في اللّغة اللاتينية "idéo" وتعني "الفكر"و"logie" وتعني "علم"؛ أي إيجاد مبحث يهتم بالأفكار ويدرسها وفق قوانين علميّة غير تجريديّة[2].

ومن هذا المنطلق يعتبر " دوستوت دوتراسي" من مبدعي لفظة الإيديولوجيا حيث يعرّفها محددًا هدفها بقوله: « فهدف الإيديولوجيا هي إحداث اصلاحات جدريّة

[1]ـ المعجم الفلسفي: إبراهيم مذكور، الهيئة العامة لشؤون المطابع ـ القاهرة ـ مصر، دط، 1983، ص29.
2ـ ينظر :الإيديولوجيات وبنية الخطاب في روايات عبد الحميد بن هدوقة :عمر عيلان ،الفضاء الحر ، دط ،2008 ،ص 12.

في المؤسسات القائمة عن طريق الإطاحة بالأفكار التي كانت تسيطر على الفكر الفرنسي»[1]

تلك الأفكار التي أداعها نابليون بونابرت في فرنسا، وبهذا اتخذت الإيديولوجيا بمعنى تحقيري استهجاني يشير إلى أفكار مثاليّة ميتافيزيقية بعيدة عن الواقعية العلميّة[2].

وبهذا يعتبر "نابليون بونابرت" أوّل من وسم مصطلح الإيديولوجيا بدلالة سلبيّة فاتخذ المفهوم عنده دلالة التحقير والتهكم في بعض الأحيان، وهذا الوصف يوحي إلى غضب نابليون على الإيديولوجيين، إذ رأى في نظرياتهم أفكار تتّسم بالخطورة وتهدّد أركان الدّولة المركزيّة القوميّة[3].

فهاجم بذلك أعضاء الجمعيّة التأسيسية المكلّفة بالقضاء على الأفكار الميتافيزيقية التي سادت المجتمع الفرنسي وإضفاء الطابع العلمي عليها، وعلى رأسهم "دوستوت دوتراسي"قائلا:

«يجبْ أن ننحي باللائمة عن الشرور التي عانتها بلدتنا فرنسا الجميلة على الإيديولوجية تلك، الميتافيزيقية الوهميّة المبهمة التي تبحث بدقة عن العلل الأولى التي ينبغي أن نبني على أساسها تشريع الشعوب بدلا من الإنتفاع بالقوانين...»[4]

وقد تحوّلت أفكار " دوستوت دوتراسي" بالرّغم من المضايقات التي تعرض لها من طرف نابليون لتهتم بشكل عام بتفسير النّظم الإجتماعية والتاريخية، حيث أصبحت هذه الأفكار أساسا للنظريات السائدة في فرنسا ومحاولة تحرير العقل الفرنسي من

[1]- أزمة الإيديولوجيات السياسيّة: أمين حافظ السّعدي، الهيئة العامة لقصور الثقافة- القاهرة- مصر، ط1، 2014، ص18.
[2]- ينظر: الإيديولوجيات وبنية الخطاب في روايات عبد الحميد بن هدوقة: عمر عيلان، ص13.
[3]- ينظر :سيمياء الإيديولوجيات في روايات محمد ساري: كمال راجعي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2013،2014، ص8.
[4]- الإيديولوجيّة: ديفيد هوكس: تر، إبراهيم فتحي، المجلس الأعلى للثقافة، دط، 2000، ص 45.

الأساطير والغيبيات «إن التفكير بحريّة معناه التحرر من الأحكام المسبقة التي يعتقد الطغيان أنها لازمة لحمايته ودعمه»[1]

فالإيديولوجيا من هذا المنظور تهتم بتصفيّة الأفكار الزائفة التي سادت المجتمع الفرنسي في عهد نابليون هذه الأفكار التي أغفلت القوانين المعروفة لدى الشعب الفرنسي ضف إلى ذلك تهميش وإقصاء تلك التقاليد التي ورثوها من تاريخ أجدادهم.

ب ــ المفهوم الماركسي للإيديولوجيا:

يعرّف كارل ماركس الإيديولوجيا في كتابه " الإيديولوجيّة الألمانية" بقوله: «هي الظاهرة المعبّرة عن البناء الفوقي أو العلوي (super– structure)؛ أي الفكر الذي يوجّه البناء التحتي أو السفلي (infra– structure)؛ أي حركة علاقات الإنتاج بالمجتمع»[2]

اقتصر مفهوم ماركس للإيديولوجيا على تتبّع مراحل تطوّرها داخل النّظام الإقتصادي «فتّم في المرحلة الأولى إثبات إنتماء الإيديولوجيا إلى البنيّة الإجتماعية بحيث تشكّلها بنية فوقية تقابل البنية التحتية الممثلة في الشروط الماليّة للإنتاج، ومتّعت الإيديولوجيا في المرحلة الثانيّة بإستقلالها الذاتي، فبحكم أنها نتاج ذهني فهي متوارثة جيلا عن جيل مما يدل على أنها تحيا في إستقلال نسبي عن الواقع الإقتصادي، وفي المرحلة الثالثة اعتبرت ذات فعاليّة لا تقل أهميّة عن فعالية الشروط الإقتصادية»[3]

---

[1]– مفهوم الإيديولوجيا:عبد الله العروي،المركز الثقافي العربي – بيروت – الدارالبيضاء،د 5،1993، ص30.

[2]–محاضرات في الإيديولوجياواليوتوبيا:بول ريكور،تق،جورج هتيلر،تر،فلاح رحيم،دار الكتاب الجديدة– بيروت– لبنان،ط1،2002،ص09.

[3]–النقد الروائي والإيديولوجيا:حميد حميداني ،المركز الثقافي العربي–بيروت– الدارالبيضاء ،ط1،1990،ص09.

والملاحظ على هذا المفهوم أن "ماركس" ربط نشأة الأفكار بحركة الحياة الإجتماعية، ومنه فالإيديولوجيا متصلة عضويًا بعلاقات الإنتاج في المجتمع وبالتقسيم الطبقي، وبالتالي فالوعي هو انعكاسً لشروط العلاقات المكوّنة للمجتمع.

فالدّراسات التي قدّمها "كارل ماركس" تجمع على أن «الإيديولوجيا هي الوعي الزائف الناتج عن التكوين الطبقي للمجتمع، والذي يؤدي إلى ستر التناقضات الطبقية وبالتالي يساعد على إمكانيّة استمرار وضع الإستغلال... »[1]

وفي محطّة أخرى نجد أن المصطلح يحمل معنى إيجابي مع " لنيين " فالإيديولوجيا عنده مجموعة أشكال المعرفة والنّظريات التي تنتجها طبقة معيّنة للتعبير عن مصالحها، وبالتالي فكما أن هناك إيديولوجيا برجوازية فإن هناك أيضا إيديولوجيا بروليتاريّة، وبذلك ارتبطت الإيديولوجيا بالطبقة بغض النظر عن تقييمها المعرفي(...) وأصبح من الممكن التحدث عن إيديولوجيا علميّة وأخرى غير علميّة، بعد أن كان العلم نقيض الإيديولوجيا عند ماركس[2]

وهذا ما دفع " بول ريكو ر" إلى الإعتراف بأن كارل ماركس في كتابه "الإيديولوجيا الألمانيّة " «قد جمع بين مصطلحي الإيديولوجيا والواقع، وهذا الرأي مخالف لما تراه الإيديولوجيا المتأ خرة التي تجمع بين مصطلحي الإيديولوجيا والعلم وعلى الرغم من هذه الرّؤية النقديّة التي قدّمها إلاّ أنه يشير إلى أهميّة هذا الكتاب في تطوير الإيديولوجيا كمفهوم»[3].

[1]-النخبة والإيديولوجية والحداثة في الخطاب العربي المعاصر:سعيد شبار ،سلسلة دراسات المعرفة والحضارة-الدار البيضاء-المغرب،ط2،2012،ص44.
[2]-ينظر،المرجع نفسه،ص45.
[3]- محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا: بول ريكور، ص11.

ج-المفهوم السيوسيولوجي للإديولوجيا (كارل مانهايم)

توظَف الإيديولوجيا عند " كارل مانهايم" كمفهوم سوسيولوجي، ويندرج تحت هذا المبحث كل تصوّر حاول أن يدرس الإيديولوجيا كحضور إجتماعي، ولهذا يعتبر " كارل مانهايم" من أبرز المنّظرين في ميدان علم الإجتماع «الإيديولوجيا نظام من الأفكار والتصّورات المرتبطة أساسا بطبقة مسيطرة تعمل وفق مسار يخدم الطبقة الحاكمة ليبرر هيمنتها وتسلّطها ويمّدها بقوة الإستمرار مخفيا بذلك تناقضاتها واتجاهاتها الحقيقية، وهذا بغية الإبقاء على النظام في صورة من العقلانية المنطقية وفق نمط تقليدي يميل إلى المحافظة على الوضع القائم والدّفاع عنه»[1]

فالإيديولوجيا عنده مرتبطة بذهنيّة الفئات الإجتماعية الحاكمة وتقابلها تلك الطبقات المحكومة ومدى خضوعها إلى الهيمنة والسلطة والقوة، لأن الهدف الأساسي من الخضوع هو المحافظة على استمرارية النّظام.

إن تصوّر " مانهايم" ينطلق من فكرة شمولية في نظر ته للإيديولوجيا، فقسّم مفهوم الإيديولوجيا إلى مفهومين "الخاص" و" العام"، فيعّرف المفهوم الجزئي بقوله: « تتجلى لنا مميزات المفهوم الخاص عندما تقابل بينه وبين المفهوم الكلّي الذي هو أكثر اتساعًا ونقصد به إيديولوجيّة عصر أو جماعة تاريخيّة عينية: مثل الطبقة حيث تتجلى لنا مميزات البنية الكليّة للفكر في ذلك العصر، وعند تلك الجماعة»[2]

والعنصر المشترك بين هذين المفهومين، أنهما فعلان تقررهما الذات سواءًا كانت فرديّة أو جماعيّة، وكلاهما يتوصل إلى فهم ما قاله الخصم بالإعتماد على منهج تحليلي غير مباشر يتلاءم مع الظروف المجتمعية للفرد أو الجماعة...[3]

---

[1]- الإيديولوجيات وبنيّة الخطاب في روايات عبد الحميد بن هدوقة:عمر عيلان، ص21.
[2]- الإيديولوجيا، ا ع وتر: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، ط2، 2006، ص14.
[3]- ينظر، المرجع نفسه، ص15.

فالإيديولوجيا عند "كارل مانهايم" رؤية معرفيّة تسعى للبحث عن حقيقة فكريّة إجتماعية، وهذا ما جعلها ت بتعد بعدًا كليّا عن المصلحة السياسيّة للمجتمع ؛أي البعد البراغماتي النفعي.

د –المفهوم العربي المعاصر للإيديولوجيا:

يقدّم عبد الله العروي في كتابه " مفهوم الإيدولوجيا" تصوّرًا نظريًا لمفهوم الإيديولوجيا«مؤكّدًا أن الكلمة دخيلة على كل اللغات الحيّة، والتي تعني علم الأفكار،غير أنه لم يتم الإحتفاظ بهذا المعنى مما أدى إلى غموضه»[1]

و تحمل الإيديولوجيا عند " عبد الله العروي " مدلولات مختلفة من خلال التقسيمات التي قدّمها، وتتمحور هذه التصنيفات في:

1/ الإيديولوجيا قناع:

يتصل مفهوم الإيديولوجيا «بميدان المناظرة السيّاسيّة، فهو يعبّر عن الوفاء والتضحيّة والتسامي عند المتكلم به، بينما تتخذ إيديولوجيّة الخصم عند هذا المتكلم نفسه معاني نقيضه، إذ تتحول الإيديولوجيا في هذه الحالة إلى قناع وراءه نوايا خفيّة حقيرة»[2]

فالمتكلّم في هذه الحالة له إيديولوجيته الخاصّة وهذه الأخيرة تحمل دلالتين متناقضتين فالأولى إيجابيّة ترتبط بفعل الإلقاء الذي يقوم به، والثانيّة سلبيّة لكونها تحمل نوايا خفيّة لا يمكن البوح بها لما لها من مدلولات سلبيّة مبطنة.

[1]- سيمياء الإيديولوجيا في روايات محمد ساري: كمال راجعي، ص20
[2]- النقد الرّوائي والإيديولوجيا:حميد الحميداني، ص15.

2/ الإيديولوجيا رؤية كونيّة:

يعرّف عبد الله العروي هذا النّوع من الإيديولوجيا بقوله: « الإيديولوجيا قناع لمصالح فئوية إذا نظرنا إليها في إطار اجتماعي آني، وهي نظرة إلى العالم والكون إذا نظرنا إليها في التسلسل التاريخي»[1].

وبالتالي فهي نظام من الأفكار الوهميّة تتضمّن تقريرات وأحكاما ما حول المجتمع عن مصلحة وتهدف إلى إنجاز عمل معيّن، وتقود إلى نظريّة نسبيّة فيما يتعلق بالقيم[2]

لا تختلف الإيديولوجيا هنا عن الإيديولوجيات السيّاسية، لأنها اتخذت قناعًا يحمي آراء ومصالح فئات معيّنة، وذلك بهدف تحقيق المنفعة الخاصّة ،أما من جهة أخرى فهي رؤية موجّهة للعالم وذلك في إطار مسارها التاريخي.

3/ الإيديولوجيا معرفة:

قدّم "جورج طرابيشي" رأيه حول هذا المفهوم، مستندًا في ذلك إلى رأي الباحث الماركسي "آدم شاف" « فالعلم لا يمثّل معرفة "موضوعية" خالصة وبالدرجة نفسها لا تمثل الإيديولوجيا معرفة "ذاتية" خالصة، ولم يصل العلم إلى المعرفة المطلقة لأنه عبارة عن تراكم وتدرّج وصيرورة، بالإضافة إلى أنه مشروط باللّغة الإجتماعية والذات حاضرةٌ دائما بشكل من الأشكال حتى في المعرفة العلميّة»[3]

[1]- مفهوم الإيديولوجيا: عبد الله العروي، ص53.
[2]- ينظر ،النسق الإيديولوجي وبنية الخطاب الرّوائي - دراسة سوسيو بنائية لرواية ذاكرة الجسد: سليم بركان، مذكرة لنيل شهادة الماجستار، كلية الآداب واللغات، الجزائر، 2003- 2004، ص18.
[3]- النقد الرّوائي والإيديولوجيا: حميد الحميداني، ص24.

وهذا المفهوم يتفق مع ما ذهب إليه "عبد الله العروي" وذلك فيما يخص العلاقة القائمة بين العلم والذات، فلا يبلغ الإقتصاد من وجهة نظر الماركسيّة ذا تها إلى منزلة العلم إلا إذا وضع نفسه في الإطار التاريخي[1].

فالإيديولوجيا عند "عبد الله العروي" يشترط حضورها في المعرفة العلميّة، لأنها نابعة عن تجربة ذاتية وهذه الذات موجودة دائمًا في النتائج التي توصل إليها العلم.

كما تظهر الإيديولوجيا بمثابة « نسق له منطقه المتميّز ودقّتُهُ الخالصة من التمثلات، سواءًا أكانت صورًا أم أساطير، أم أفكارا، أم مفاهيمًا، فهي تحظى بوجود تاريخي وتؤد ى في إطار مجتمع معطى، فالطابع النسقي للإيديولوجيا يجعلها تتمثل الوقائع الإجتماعية تمثّلا خالصًا)[2]

إن المجتمع بمعتقداته وأفكاره هو الذي يشكّل الفكر الإيديولوجي، ووظيفة هذا الفكر هي العمل على ديمومة الأنظمة السياسيّة والإجتماعية والإقتصادية، بالإضافة إلى النظم التاريخية، ويتّم ذلك من خلال تصوّر تلك الأنظمة و اعتبارها قوانين منّظمة لأي مجتمع.

2- الإيديولوجيا وعلاقتها بالسياسة:

أصبحت السيّاسة اليوم تمثل أحد الهواجس الرئيسة التي تشغل اهتمام البشر بصفة عامة والمثقفين منهم خاصة، وهذا الإهتمام فرضته طبيعة الحياة في مجتمعات تناضل من أجل إثبات الوجود، ونفي الظلم عن الوطن والمواطن، والسياسة تعني :« أسلوب الحكم وطريقة الإدارة السيّاسية، وكيفية صنع القرار السياسي وتنفيذه من خلال المؤسسات السياسية الحاكمة والمعارضة وما تحمله هذه السياسة من أفكار إيديولوجية

[1]- ينظر: النقد الروائي ،والإيديولوجيا :حميد الحميداني ، ص ن.
[2]- حداثة السّرد والبناء في رواية "ذاكرة الماء لواسيني الأعرج": آمال سعودي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كليّة الآداب واللغات، محمد بوضياف - مسيلة - 2007- 2008، ص38.

والممثلة في مجموعة المعتقدات السيّاسية الشاملة الواضحة التي تحدد مجال العمل السياسي ومساره»[1].

فالإيديولوجيا هنا تمثل الأطر الفكرية والعقائديّة الموجهة للسياسة؛ أو هي مجموعة النظريات والأهداف المميّزة للأفراد أو الجماعات أو الثقافات «الإيديولوجيا بهذا المعنى ذات معنى ضيق إلى حدّ ما بالنسبة للسياسة، حيث تعدّ السياسة مظلة واسعة تكون الإيديولوجيا أحد فروعها»[2]

فكاتب الرّواية السياسيّة ليس بالضرورة منتميًّا إلى طرف حزبي معين، لكنه صاحب رأي أو فكرة إيديولوجية يريد أن يقنع بها القارئ بشكل صريح أو ضمني.

« فالقول بأن القوّة هي كل شيء، يعني أن السياسة هي كل شيء أيضا، أو أن كل شيء هو سياسي وعندما تـغو السياسة كل شيء بالمطلق ويغدو كل شيء سياسي بالمطلق تصبح السياسة بالتالي لا شيء، إنّه إعلان عن " نهاية السياسة" على طريقة نهاية الأدب والذات والإنسان والإيديولوجيا...»[3]

لكل مجتمع أفكاره وإبداعاته الفنيّة، وهذه الأفكار حسب "ميشال فوكو" تكتسب قوتها ووجودها من خلال إرتباطها بالسيّاسة، فهي مصدر كل قوّة، وبالإعلان عن نهايتها نكون قد أعلنا في الوقت نفسه عن زوال الإيديولوجيا.

ومن هنا تعتبر الإيديولوجيا أحد أهم الأوعيّة لنق ل الأفكار السياسيّة في عصرنا ودون الإيديولوجيا فإننا نكون تقريبا دون ضمير، ودون دستور ينظّم حياتنا ودون

[1]- الرواية السياسية :طه وادي ،الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ـا.القاهرة ـمصر ،دط،ص 34

[2]- المرجع نفسه، ص33.

[3]- دفاعًا عن الماديّة والتاريخ ـ مداخلة نقديّة مقاربة في تاريخ الفلسفة الحديثة المعاصرة: صادق جلال العظم، دار الفكر الجديد- بيروت ـ لبنان، ط1، 1990، ص522.

ميناء، فهي الوحيدة القادرة على صياغة أفكارنا ودوافعنا واتجاهاتنا ونظمنا السياسيّة ولهذا يمكننا القول بأنّها تمثل قيمنا[1].

فالإيديولوجيا « فهي ذات مضمون سياسي، وكأن السياسة هي التطبيق العلمي للإيديولوجيا... وإن التفكير الإيديولوجي والسياسي صنوان من حيث الآليات المعرفيّة والإستدلاليّة، فهما معًا يقومان على اعتبارات براغماتيّة ومنفعيّة حسب الضرورة والحاجة»[2].

فالإيديولوجيا والسياسيّة متلازمان إذ لا يمكن فصل طرف عن الآخر وذلك بالنظر إلى الآليات المعرفيّة ،كما أن غايتهما مشتركة والمتمثلة في تحقيق منفعة وذلك حسب الحاجة لأنهما مرتبط نان بالأهواء الإنسانيّة ولهذا «توظّف الإيديولوجيا كأهم المصادر لإضفاء الشرعيّة إذ تعد من المكوّنات المهمة لبناء أي حكومة، وفق هذا التصوّر تسعى الأنظمة السياسيّة إلى تبرير شرعيتها عن طريق الإيديولوجيا، ومردّ ذلك أن النّظم السياسيّة لا تستطيع الإعتماد على القوة فقط لترسيخ سلطتها، ومن ثمة تلجأ إلى الإيديولوجيا كأداة لتمتعها بالشرعيّة وإمكانية تجسيد أفكارها في المجتمع»[3].

عملت الإيديولوجيا السياسيّة عند هيجل « على تمجيد الدولة القوميّة ورفعها فوق مصاف الأفراد والأعضاء فيها، ورأى أن الدولة ما هي إلاّ المركّب أو الحركة الثالثة في سير النّظم السياسيّة والأفكار الإيديولوجيّة »[4] ولتجسيد الأنظمة السياسية والأفكار الإديولوجية التي تعبّر عنها لابد من الإعتماد على النظام الهيكلي للدّولة، إذ تعدّ هذه الأخيرة أحد المركبات المقدسّة لتطبيق هذه الأنظمة.

---

[1]- ينظر ،النخبة والإيديولوجية والحداثة: سعيد شبار، ص59.

[2]- المرجع نفسه، ص63.

[3]- الإيديولوجيا واليوتوبيا في الأنساق المعرفيّة المعاصرة- دراسة مقاربة بين كارل ما نهايم وتوماس كون: عبد الله عبد الوهاب محمد الأنصاري، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب واللّغات، جامعة الإسكندرية، 2000، ص62.

[4]- المرجع نفسه، ص34.

ولنجاح النظام السيّاسي لابدّ من مراعاة ثلاثة عناصر مهمة تساعد على قيام الأحكام السياسيّة وهذه العناصر تتجسد عند هيجل في « أولها مجلس الشورى الذي ينظر للشؤون العامة، وثانيها هو الهيئة الحاكمة ؛ أي الأشخاص الذين تناط بهم السلطة والصلاحيات التي يخوّلونها وطريقة إنتخابهم وثالثها هو مجلس القضاء»[1]

وهذه الأحكام السياسيّة أو الأفكار تشكل محورا للرواية السياسية، فإذا تمعنّا في جزئياتها نجد أن الشخصيّة من أبرز العناصر التي تقدّم لنا الرؤية الإيديولوجية للكاتب إتجاه الآخر، وال تي تتجسد عمومًا في الرّواية بالوجود الاستعماري، أو بالوجود الإيديولوجي النفعي الذي يهدف إلى تحقيق مصالح براغماتية.

إنّ الإنسان المعاصر يؤمن بوجود علاقة متبادلة بين السياسّة والإيديولوجيا « وفي الواقع إن الإيديولوجيا في المجتمع الطبقي غير منفصلة نهائيا عن السياسة، وهي شكل من أشكالها روحًا وجوهرًا، إذ أنها تقوم على أسس سياسيّة تعكس العلاقات الموضوعيّة ما بين الطبقات، فالسياسة في المجتمع الطبقي تقتحم القانون والأخلاق والعلم والفن والفلسفة والدّين...»[2]

وعليه فالسيّاسة من هذا الجانب لم تعد شغل السياسي فحسب، بل أصبحت ه مَ كل إنسان معني بالسياسة طالما لها علاقة بكل شأن من شؤون الإنسان تتغلغل في جميع نواحي حياته، هزائمه وانتصاراته «فالسياسة هي بوابة أي تغيير وفاتحة كل عهد جديد، ولأنها مفتاح كل شيء الرزّق، الأمن، الحريّة والعدالة، والعمل في السياسة هو مواجهة مستديمة متصاعدة مع السلطات السائدة وأجهزتها ومواليها»[3]

[1]- مفهوم المدينة في كتاب السياسة لأرسطو: حاتم النقاطي، دار الحوار للنشر والتوزيع -اللاذقية - سوريا، ط1، 1995 ص48.

[2]- البطل السجين السياسي في الرّواية العربيّة المعاصرة: علي منصوري، مذكرة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الأدب الحديث، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الحاج لخضر- باتنة- 2007-2008 ، ص21.

[3]- المرجع نفسه، ص22.

إن السياسّة بهذا المعنى تقوم مقام القانون أو النظام الذي يسيّر حياة النّاس وذلك باعتمادها على أجهزة معيّنة، وهي بهذا المعنى جزء لا يتجزّأ من حياة الإنسان إذ تنشأ معه مواصلة بذلك مسيرة حياته .

3-علاقة الإيديولوجيا بالرّواية:

إن البحث في علاقة الإيديولوجي ا بالرّواية لا يستلزم إثبات حضور الإتجاه الإيديولوجي في مظهره المباشر، وإنّما البحث عن جماليات الكتابة الرّوا ية في سياقات أسلوبيّة مبتكرة في مراحل تاريخية معيّنة و « بما أن الإيديولوجيا نسق للتصورات التي تحكم الفكر والممارسة وتشكل في الوقت ذاته مستوى يتضمن أفكارًا سياسية، دينيّة جماليّة، أخلاقيّة »[1]، وهذه القيم نجد حضورها في الرّواية وهذا ما يؤكد على العلاقة القائمة بين الإيديولوجيا كنسق فكري والرّواية كنص سردي، وفي م ايلي سنعرض لبعض الآراء التي تشير إلى هذه العلاقة.

يعرض "بيار ماشيري" تصوّره الجديد لعلاقة الرّواية بالإيديولوجيّة في كتابه الموسوم " من أجل نظريّة للإنتاج الأدبي " حيث ركز فيه على مفهوم المرآة العاكسة كما تمثّله "لينين" أثناء دراسة أعمال " تولستوي"، والملاحظ على دراسات " لينين" استخدامه لثلاثة مفاهيم « المرآة، الإنعكاس، التعبير »، وذلك من خلال التناقضات الموجودة في الواقع بالإضافة إلى الإمتداد التاريخي، وبالرّغم من أننا نستطيع الوقوف عند الكثير من المعطيات الواقعية في أعمال " تولستوي " و هذا لا يعني أن "لينين" تمكن من معرفة العالم معرفة شاملة[2].

[1]- الخطاب السّردي في الرّواية العربيّة: عدنان علي محمد الشريم، عالم الكتب الحديث - أربد - الأردن، دط، 2015، ص191.

[2]- ينظر: سيمياء الإيديولوجيا في روايات محمد ساري: كمال راجعي، ص30.

وهذا الرأي جسّد رؤية جديدة عند "بيار ماشيري" حول النّص الرّوائي الذي لا يعبّر عن الحقيقة وإنما الأفكار المختلفة والمكوّنة له وذلك من خلال الإعتقاد بأن المرآة خائنة لأنها لا تعبّر عن الواقع تعبيرا صادقا « فالنّص الرّوائي معرفة، لأنه لا يعكس الحقيقة الكليّة للمسار التاريخي فحسب بل يعبر عن حدوده المعرفيّة أيضا»[1].

فالرّواية عند "ماشيري" تبتعد عن كونها نصًا معرفيًّا لتكتسي طابعًا إيديولوجيًا تلك الإيديولوجيات بمثابة المادة الخام للمنتوج الأدبي.

ومن هنا يأخذ مفهوم المرآة عند "ماشيري" معنى جديدًا يتجاوز فيه المعنى السطحي القديم « فلا ينبغي التنقل بين النّص والواقع، ولكن ينبغي بكل بساطة تحليل النّص والنّظر إليه كبنيّة مكوّنة من مجموع متغيرات معقدة، وهذه التناقضات المكوّنة للعالم الرّوائي تمثل أيضًا معطيات أوليّة تفتح أبعادًا أخرى لتأويلات متناقضة للنص ذاته»[2].

وهذا الطرح الجديد الذي قدّمه "بيار ماشيري " دفع الناقد المغربي "حميد لحميداني" في كتابه " النقد الرّوائي والإيديولوجيا " بالإشادة إلى الدّور الذي لعبه "ماشيري" في أبحاثه حول موضوع الإيديولوجيا في الرّواية ، إذ يقول: « ونرى أن الكلام عن أفكار ماشيري يفرض نفسه في المقدّمة بالقياس إلى أبحاث الماركسية؛ (...) إن ماشيري ينقلنا تدريجيا إلى بناء تصوّر جديد لعلاقة الرّواية بالإيديولوجية»[3]

ومن بيار ماشيري ننتقل إلى "ميخائيل باختين" أحد المنّظرين للرّواية، وذلك من خلال المنطلقات والحدود النّظرية التي اعتمدها في بلورة أفكاره حول علاقة الرّواية بالإيديولوجيا في كتابه " الماركسيّة وفلسفة اللّغة "، حيث يصرّ على إقامة علاقة بين

[1]- الإيديولوجي والفني ـ مقاربة بنيويّة تكوينيّة في روايتي" اليتيم والفقير" لعبد الله العروي: سعيدة جلايلية، عالم الكتب الحديث ـ اربد ـ الأردن، 2014، ص14.
[2]- سيمياء الإيديولوجيا في روايات محمد ساري: كمال راجعي، ص20.
[3]- المرجع السابق، ص12.

البناء اللغوي للرّواية والإيديولوجيا، في قوله: «إن الوجود الإجتماعي ينجز أشكالا مختلفة للوعي ويخضع في أساسه إلى طبيعة الوجود الفعلي للأفراد وبوضعياتهم الإقتصاديّة والإجتماعيّة، فطبيعة التواصل تجعل اللغة تشتغل بوصفها مجموعة من الأدلّة المشبعّة بنظرات وتصوّرات الفئات والطبقات الإجتماعيّة، وتعبيرًا عن رؤاهم الفكريّة»[1]

إن الإيديولوجيا التي تحملها الرواية عند "باختين" «هي مجموع الإنعكاسات والإنكسارات داخل المخ البشري للواقع الإجتماعي والطبيعي الذي يعبّر عنه ويثبتّه بواسطة الكلمة، الرّسم الخط أو بشكل سيميائي آخر، من ثم عندما تقول إيديولوجيا فإن ذلك يعني داخل إشارة أو كلمة أو علامة أو خط بياني، أو رمز.. ».[2]

فالفكر الإنساني يعاني من مجموعة أزمات موجودة في المجتمع، وبما أن الرّواية هي رسم بالكلمات أو هي بناء لغوي سيميائي فهي قادرة على معالجة تلك الفجوات والإنكسارات و بالتالي فهي تتجاوز عملية البحث إلى المعالجة.

ولقد اعتمد "باختين" على الأبحاث اللسانية الماركسية في إثبات وجود الإيديولوجيا داخل البناء الفني للرّواية، إذ يرى بأن اللغة مشحونة بإيديولوجيات التي تجسد الصراع الإجتماعي وتندمج مع هذا الصّراع ولتصبح من مكوّناته السياقية « فكل شخصيّة وكل هيئة تمثل في الرّواية، إلا ولها صوتها الخاص وموقفها الخاص ولغتها الخاصّة، وأخيرًا إيديولوجيتها الخاصّة»[3]

---

[1]- الإيديولوجيات وبنية الخطاب في روايات عبد الحميد بن هدوقة: عمر عيلان، ص 68.
[2]- الخطاب الروائي: ميخائيل باختين، تر محمد برادة، دار الفكر للدّراسات والنشر والتوزيع - القاهرة - مصر، ط1 1987، ص22.
[3]- النقد الرّوائي والإيديولوجيا: حميد لحميداني، ص33.

فالإيديولوجيا من المكوّنات الجمالية للرّواية، حيث يستطيع الفنّان من خلالها صياغة عالمه الخاص المليء بالتصوّرات والأفكار بل وتتعدى إلى إكتشاف مكنوناته النفسية من ميول ورغبات.

ومن النقاد الذ ين أشاروا إلى وجود صلة بين الإيديولوجيا والرّواية نجد الناقد الفرنسي" كريستين بيسي كليسمان" في قوله: « تعدّ الرّواية شكلا إيديولوجيا ، وتكون الإيديولوجيا هي البنيّة الفوقيّة لأنساق الفكريّة وللوعي الإجتماعي تلك البنيّة التي تعبّر عن علاقات إجتماعية محدّدة، وهنا تكون الرّواية شيئا تابعا لوجود الإيديولوجيات . »[1]

إن الرّواية باعتبارها نصًا أدبيّا له تقنياته الخاصّة هذه التقنيات تسهم في صياغة الأنساق الإيديولوجيّة السابقة لوجودها ،فتنتج بذلك فهمًا دقيقا بعيدًا عن المواقف الطبقية لذا الكتاب.

المبحث الثاني:الهوية

1-مفهوم الهوية:

الهويّة من المصطلحات المتداولة بكثرة في السّاحة السياسيّة والإجتماعيّة والثقافية في العالم عامة وفي الوطن العربي على وجه الخصوص، بالإضافة إلى تقاطعها مع تخصصات كثيرة: كعلم النفس، علم الإجتماع، الفلسفة والأدب، ونظرًا لهذا التشعّب وجب الوقوف على أهم المفاهيم التي تحاول ضبط هذا المصطلح.

تشير لفظة الهويّة في المعجم الفلسفي على : «حقيقة الشيء من حيث تميّزه عن غيره وتسمى أيضا وحدة الذات» [2].

[1]-الخطاب السردي في الرواية العربية:عدنان علي محمد الشريم،ص191

[2]- المعجم الفلسفي: إبراهيم مذكور، ص208.

وفي مقابل ذلك يعرّفها معجم الرائد بقو له : « هي الحقيقة المطلقة في الأشياء والأحياء المشتملة على الحقائق والصّفات الجوهريّة»[1]

يفهم من هذين التعريفين أن الهويّة تتجسّد من خلال تلك الحقائق الجوهريّة المكوّنة للأشياء، والتي بدورها تصنع الفرق بينها وتجعلها مستقلة عن غيرها بخصائص ومميّزات خاصّة بها، كقولنا: كرسي ففي هذه الحالة نميز الكرسي عن غيره من الأشياء كما تطلق الهوية على جملة من العلامات والخصائص المكونة لمجموعات بشرية مختلفة تستقل بهاالدات عن الآخر فبغيات هذه العلامات والخصائص تغيب الذات وتنصهر مع الذوات الأخرى وبحضورها تحضر[2]، إذ تصبح الهوية علامة على الخصوصية والتفرّد

وتتجسد الهوية عند الإنسان من خلال مطالبته بحق الإنتماء إلى المكان الموجود فيه« الهويّة هي حق الإنتساب ويكون بمثابة الملاذ الذي يجنح إليه الفرد، في سبيل ممارسة العيش في ظل السطوة الشديدة التي تمارسها التعيينات الجماعية »[3].

ولتحقيق هذا المبدأ لابدّ من خلق مجموعة من الخصائص الشكليّة التي تميّز شخصيّة ما عن باقي الشخصيات « الهويّة صورة أو بطاقة لتعرّف الآخر على الذات في البنوك والمؤسسات والمركبات والإمتحانات وكل ما يحتاج إلى التحقق من الشخصيّة، لها رقم وصورة وتاريخ ميلاد وتاريخ إصدا ر للإشارة إلى فرد بعينه وانتحالها يعاقب عليه القانون» [4].فالهويّة بهذا المعنى تمثل تلك الأوراق الثبوتية التي تصدرها كل دولة لمواطنيها لتميّزهم عن غيرهم من الأفراد، وبهذا تكون قد خلقت نوعًا من التمايز والإختلاف وذلك بالنّظر إلى الصفات المكوّنة لكل جماعة، وهي

[1]- معجم الرّائد: جبران مسعود، دار العلم للملايين - بيروت - لبنان، ط7، 1992، ص847.
[2]- ينظر، اللغة والهويّة في الوطن العربي - إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسيّة: أ محمد جبرون وآخرون، المركز للأبحاث ودراسة السياسات - بيروت - لبنان ، ط1، 2013، ص50.
[3]- عراق الهوية النّسقية: إسماعيل نوري الربيعي، مجلة الكوفة، ع4، خريف 2013، ص137.
[4]- الهوية: حسن حنفي حسنين، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - مصر، ط1، 2012، ص10.

صفات تمنح الأفراد حقهم في الإنتساب إلى جماعات معينة و الملاحظ على هذه المفاهيم أنّها تصبّ اهتمامها على النّاحيّة الشّكلية للأفراد وهذه الخصائص تبرز بوضوح على بطاقة الهويّة الخاصّة بكل فرد، وبالمقابل نجد حضور بعدًا آخر والمتمثل في تلك المشاعر والعواطف والأفكار بالإضافة إلى الموروثات الحضاريّة التي يتوارثها الأشخاص عبر أزمنة مختلفة، ومن هذه الأبعاد نجد البعد النفسي للهويّة والتي تتمثل في «التنظيمات الديناميّة الداخليّة للحاجات والدّوافع والقدرات والمعتقدات والإدراكات الذاتيّة بالإضافة إلى الوضع الإجتماعي والسياسي للفرد، وكلما كان هذا التنظيم على درجة جيّدة، كلما كان الفرد أكثر إدراكا و وعيًا بتفرّده وتشابهه مع الآخرين وأكثر إدراكا لنقاط ضعفه وقوتّه... »[1].

فبالرغم من امتلاك الفرد لمجموعة من الغرائز والدّوافع والقدرات التي تميّزه عن غيره من الأفراد ،إلا أنه بحاجة إلى العيش في إطار مجتمعي يمنحه الشعور بالإنتماء إلى الجماعة والإشتراك معهم في منظومة من القيم.

وهذا يؤكد أن الفرد يعتز بهويته متمسكًا بها لأنها تكوّن « مجموعة الأفكار والمعتقدات والمشاعر والقيم و الإتجاهات التي يكوّنها الفرد عن ذاته وعن الآخرين وعن بيئتهم ومجتمعهم»[2].

إن الحديث عن مفهوم الهويّة يستدعي حضور مجموعة من العناصر التي تقوم عليها كاللغة، الدين، العادات، التقاليد وهذا ما يحدّد الهويّة من المنظور الإجتماعي والتي تعني « مجموعة السمات الإجتماعية والثقافية والحضارية المميزة لجماعة بشرية معينة، والهوية بهذا المعنى تطال عدة مستويات، وتشمل عدّة مكوّنات؛ أي أنها مفهوم واسع يشمل كافة الأنشطة التي يقوم بها الإنسان،ويندرج عبر عدة مستويات:الهوية

[1]- الهويّة والإختلاف في الرّواية النسويّة في المغرب العربي: سعيدة بن بوزة، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي الحديث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر- باتنة - 2007، 2008، ص17.
[2]- النسق المجتمعي وأزمة الهويّة: د خالد حامد، مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة تبسة، ع الأول، ص338.

البيولوجية، الهوية الاجتماعية، الهوية الثقافية» [1].كما تدل الهوية على الموروث الحضاري المعبّر عن الأصالة والخصوصيّة المميّزة لكل حضارة، فهي المكوّن الثقافي الذي يحفظ. كيان الأمة ويعبر عن استمراريتها التاريخية[2]

فالهويّة هي كل منتوج حضاري تضافرت في تكوينه عوامل تاريخية و إجتماعية إقتصادية وثقافية مختلفة، بالإضافة إلى مؤثرات داخليّة وذلك بهدف خلق نوع من التواصل الثقافي والحضاري عبر أزمنة مختلفة.

كما أصبحت الهوية عنوانا للفلسفة "فلسفة الهوية" وذلك عند الفيلسوف "شلنج" «الهوية تعني أن يكون الوجود مطابقا لنفسه دون فصام أو انقسام أو ازدواجية فهي تطابق الرّوح والطبيعة، المثال والواقع... وهي ليست هويّة رياضيّة أو منطقية، أو فلسفية أو نفسية فقط، بل هي هويّة قريبة من الوجود، وهذا ما يمنحها حريّة الإنتقال من تجربة فرديّة (جزئيّة) إلى تجربة كلية متعلقة بالوجود »[3].فالهويّة من المنظور الفلسفي تتعدى المنطق والفلسفة والنفس لأنها ظاهرة شاملة لهده الجوانب مرتبطة بالوجود كله.

2- الهوية والإيديولوجيا:

إن البحث عن الهوية هو بحث مزدوج، لأنه يبحث في الهويّة، وأهم المكوّنات التي تقوم عليها وبحث عن الهويّة، وكلاهما يختلف عن الآخر في موضوعه: « فالبحث في الهويّة، بحث معرفي، أما البحث عن الهويّة فبحث إيديولوجي غالبًا، البحث في

[1]- الهوية والإختلاف في الرّواية النسويّة في المغرب العربي: سعيدة بن بوزة، ص 18.

[2]- ينظر ، إشكالية الهوية والمغايرة في الفكر العربي المعاصر:محمد نورالدين جباب ،مذكرة لنيل درجة دكتوراه دولة في الفلسفة،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ،جامعة الجزائر،2005-2006،ص204.

[3]- ينظر، الهويّة: حسن حنفي، ص ص 13، 14.

الهويّة بحث صنع لهذه الهويّة، ومتابعة لصنعها بإستمرار، أما البحث عنها فيعني أن الهويّة منجزة ولكنها ضائعة يجب البحث عنها لإستردادها»[1].

فالهويّة هنا حاضرة داخل النسيج الإجتماعي لكنها تعاني في بعض الأحيان حالة من الضياع والتشتت نتيجة فقدان بعض مقوّماتها كالبحث عن الحريّة والسلم في ظل التطرفات الدينية والإجتماعية السلبيّة.

وبهذا فالإيديولوجيا بأفكارها العامّة المشتركة تدمج الأفراد في تكوين خاص أو جماعة أو حزب لتحديد الأشياء المقبولة والوظائف التي يجب على الذات تحقيقها، ذلك «أن الإيديولوجيا ليست فقط هي التي يرى بها أو من خلالها الإنسان عالمه، ولكنها أيضا مرآة يرى فيها الآخرين»[2].

إن الإيديولوجيّة بهذا المعنى مرتبطة بالإنسان والمجتمع، بالفرد والجماعة وبالتالي فهي موضوع إنساني خالص يعمل على تحديد الأشياء والوظائف و تحقيقها من طرف هذه الذات.

« تؤدي الإيديولوجيا وظيفة التوحيد وال دمج وإعطاء إحساس بالهويّة لأولئك الذين يشتركون في إعتناقها وتأكيدها من خلال تحديد الأدوار وتأكيد الشخصيّة من خلال هذه الأدوار، ومن ناحيّة أخرى تمرّ المجتمعات الحديثة في بدايتها بمجموعة من التوترات تساعد الإيديولوجيا غالبا على التقليل من آثارها»[3].

---

[1]ــ الهويّة والإختلاف في الرّواية النسويّة في المغرب العربي: سعيدة بن بوزة،ص14.

[2]ــ الإيديولوجيا واليوتوبيا في الأنساق المعرفيّة المعاصرة: عبد الله عبد الوهاب محمد الأنصاري،ص62.

[3]ــ المرجع نفسه ، ص ن.

إن الإيديولوجيا هنا تمثل نمودج من نمادج الضرورة الإجتماعيّة، فهو يحتاج إليها في جميع مراحل بنائه لكي يغرس في أعضائه تلك القيم الضرورية كالحريّة والقانون والعدالة وهي المبادئ الأساسية التي لا يمكن للهوية الإنسانية الإستغناء عنها.

كما تسعى الإيديولوجيا إلى تحقيق هويّة الذات وذلك بمحاولة خلق أكبر قدر من التماسك والوحدة داخل إطارها الإجتماع «فهي تساعد النسق الإجتماعي الحاوي لهذه الهويّات على تحقيق أكبر قدر من التكامل من خلال تشكيل ثقافتها السياسية وتنمية رأيها العام وتحديد إطارها الأخلاقي»[1].

فوظيفة الإيديولوجيا هنا هي التقليل من الصراعات التي تواجهها الذات والعمل على خلق التوازن بينها وبين الكيان الإجتماعي بأنساقه ونظمه المختلفة، فالهويّة بإختلافها وتعدّدها (فردية ، جماعية) يتحدّد وجودها وإطارها العام بفعل الأنساق السياسية والأخلاقية التي تسعى الإيديولوجيا إلى تحقيقها.

لذلك فالبحث عن الهويّة هو بحث عن محدّداتها ومكوّناتها الجوهريّة وتمظهراتها المختلفة داخل الأنساق المعرفية المتعددة (سياسية، إجتماعية، أخلاقية...)[2]

إن الإيديولوجيا من هذا المنطلق تعتبر إطارًا عامًا أو قالب يضم الأنساق والنّظم المختلفة المكوّنة للهويّة، فيتحقق بذلك تلاحم الذات مع مكوّناتها الجوهرية، وهذا يعني أن الإيديولوجيا أدت وظيفة الدمج والتوحيد لهذه المكوّنات.

[1]ــ الا ديولوجيا و اليوتوبيا في الأنساق المعرفية المعاصرة :عبد الله عبد الوهاب محمد الانصاري ، ص63.

[2]ــ ينظر: الهويّة والسّرد الرّوائي بول ريكور: حاتم الورفلي، دار التنوير للطباعة والنشرــ بيروت ــ لبنان، 2009،ص5.

3- علاقة الهويّة بالسّرد:

إن الحديث عن السّرد أو النّص السّردي طويل ومتشّعب لكونه أصبح علما قائما بذاته له تقنياته الخاصة وأساليبه المتعدّدة، وغرضنا هنا يقتصر على تقديم صورة موجزة لمفهوم السّرد وعلاقته بالهويّة أو الذات المنجزة لهذا الفعل.

يعرّف رولان بارث السّرد بقوله « يمكن أن يؤدي الحكي بواسطة اللغة المستعملة شفاهيّة كانت أم كتابيّة وبواسطة الصّورة، ثابتة أو متحركة، وبالحركة وبواسطة الإمتزاج المنظم لكل هذه المواد، إنه حاضر في الأسطورة والخرافة والأمثولة والحكاية والقصّة والملحمة والتاريخ»[1]

أو هو « الطريقة التي يختارها المبدع أو الروائي ليقدّم بها الحدث أو أحداث المتن الحكائي، ولهذا السّرد أشكال كثيرة، تقليديّة كالحكاية عن الماضي، تتم بضمير الغائب كما هو الحال في رائعة ألف ليلة وليلة؛ وجديدة تقوم

بإصطناع المخاطب أو المتكلم أو إستخدام أشكال أخرى كالمناجاة الذاتية الإستباق، الإسترجاع... »[2]

من خلال هذين المفهومين نجد أن السّرد فعل لا حدود له يتسع ليشمل مختلف الخطابات كالأسطورة، الحكاية، القصّة، الرّواية، يبدعه الإنسان بهدف إنشاء قصص يراها مكونا أساسيا لهويته دون أن تكون هذه القصص حدثا واقعيا.

---

[1]ــ الكلام والخبر ــ مقدمة للسّرد العربي: سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي ــ بيروت ــالدار البيضاء،ط1، 1997،ص19.

[2]ــ خصائص الفعل السّردي في الرّواية العربيّة الحديثة: بعيطيش يحي، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري (قسنطينة) الجزائر، العدد8، جانفي2011،ص5.

فوظيفة السّرد تكمن في تحديد الإطار الفني الذي يحوي هوية الذات «فرديّة أو جماعيّة» وأهم الخصائص المميزة لها والأحداث التي تعبر عنها، باعتبار أن الهويّة الإنسانيّة تاريخا طويلا حافلا بالعديد من التناقضات والصّراعات والنزاعات، وهذه التناقضات تعدّ أحد أهم الثوابت الأساسيّة المحافظة على هذه الهويّة وهذه الأخيرة تستعيد كيانها ووجودها بفعل السّرد « إن استخدام السّرد عبر التذكر والإستعارة مانح أشكال هوويّة للذات التي لا تكون بمعزل عن تاريخيتها، إذ هي تعيد بناء ماضيها حدث وصورة للحدث بأساليب رمزيّة بهدف إقامة علاقة بين الذات والآخر»[1]

فالسّرد محور يدور حوله وجود الإنسان بتمظهراته المعرفيّة والتاريخية التي تمنح الذات تأصّلاً وتجددًا في أزمنة مختلفة، فهو الذي يعيد بناء ماضيها تذكرًا وحاضرها تعايشا ومستقبلها تخيُّلاً[2].

فالهوية من هذه الزاويّة ليست ثابتة، بل متغيرة متجدّدة تتفاعل مع الواقع المتغيّر فهي شاملة بفعل تجارب الذات اليوميّة التي تصاغ في قالب سردي يحكي هذه التجارب والتي بدورها تدخل فيما يعرف بالزمن المروي، « والفاعل هذا الزمان المروي هو الهويّة السّردية المشكلة من طرف السّرد، وبهذا يقوم بتقديم نوعًا ثالثًا من الزمان يمتد كجسر واصل بين زمانين آخرين وهما: الزمان الظاهراتي في مقابل العادي والموضوعي في مقابل الخفي»[3].

فالزمان ليس واحد، بل هو متعدّد منغلق على ذاته ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة السّرد، أو الذات القائمة بالفعل السّردي وذلك من خلال صياغة قصصها وحكاياتها وأساطيرها ضمن نظام زماني خاص بها.

---

[1]ــ الهويّة والسّرد: بول ريكور: حاتم الورفلي:ص 79.

[2]ــينظر: المرجع نفسه،ص30.

[3]ــ الزمان والسّرد: بول ريكور، تر:سعيد الغانمي، دار الكتاب الجديدة، ط1، 2006،ص7.

« فلا تتحقق الهويّة إلا بالتأليف السّردي، ولا يمكن أن تتشكل هويّة الفرد أو الجماعة إلا من خلال الإستغراق في السّرديات والحكايات، التي تصير بالنسبة لهما بمثابة تأريخهما الفعلي»[1].

وبهذا يصبح السرد وسيط للهويّة وتكمن أهميته في جمع وتحريك مكوّناتها « فرديّة أو جماعيّة »وذلك بإقامة زمنهما الخاص أو تاريخهما الخاص الذي يتحدد ويستمر بفعالية واستمرارية الأحداث المكوّنة للنّص السّردي.

[1]ــ الهويّة والسّرد: بول ريكور،ص30.

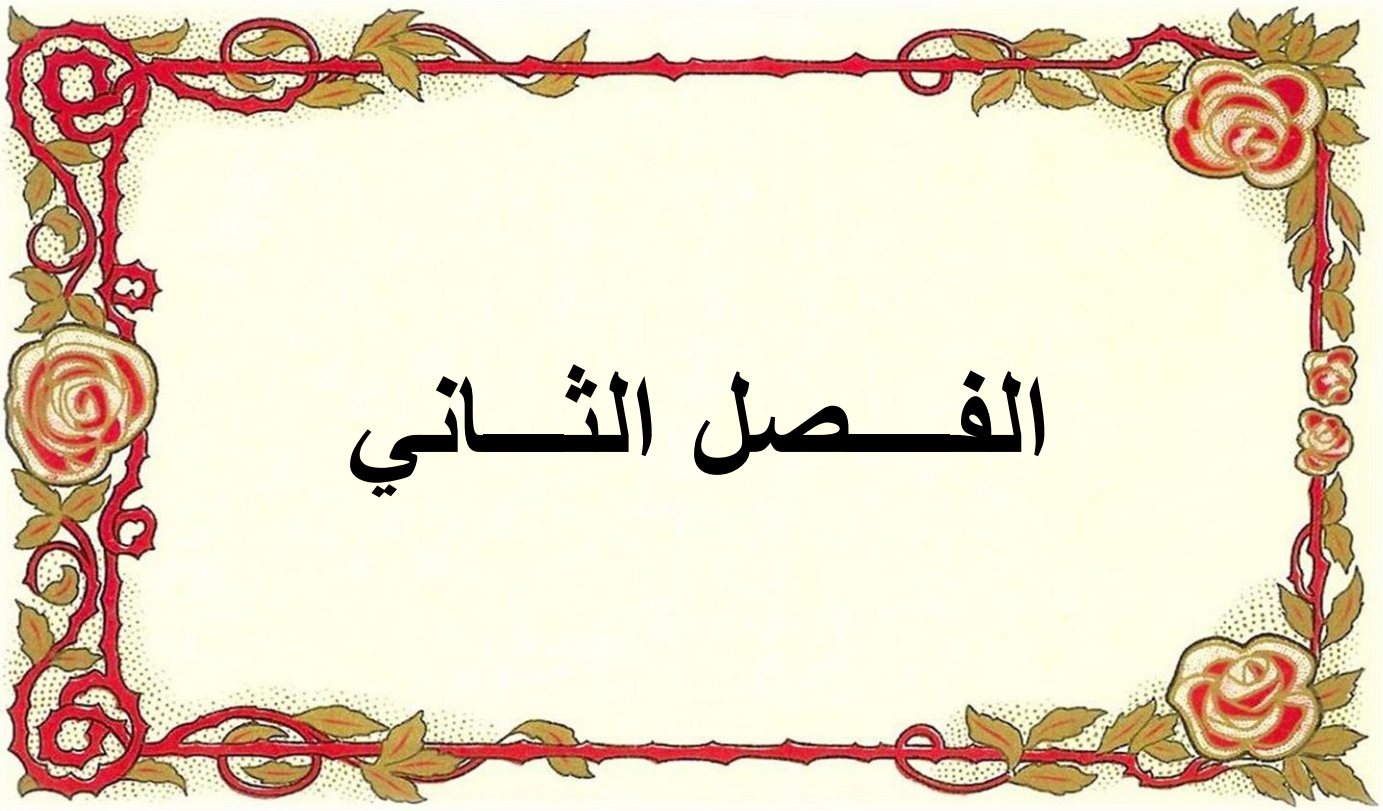
الفـــصل الثـــاني

المبحث الأول: دراسة الأبعاد الإيديولوجيّة في الرّواية:

1/ البعد الإيديولوجي البراغماتي (النفعي):

الإيديولوجية البراغماتية هي إيديولوجيّة نفعيّة مرتبطة بأفراد أو جماعات معيّنة هدفها الوحيد تحقيق مصالحها الخاصّة حتى ولو على حساب الآخرين وقد تجلّت الإيديولوجيّة النفعيّة في نص المدوّنة "الكولونيل الزبربر" بثلاث إتجاهات تختلف في الوسائل لكنها تشترك في الهدف.

تمثل الإتجاه الأوّل في السلطة الإستعمارية وأجهزتها القمعيّة التي مارستها على الشعب الجزائري وذلك بهدف جعل الجزائر تابعة لفرنسا« الجزائر ستبقى فرنسيّة» [1] مثّلت الرّواية للإيديولوجية الإستعمارية البراغماتية بالعقيد "بيجار" وأعماله الإجراميّة وذلك بمساعدة الخونة "حمو" و" قيزا" بالإضافة إلى النقيب "قرازياني" مساعد العقيد "بيجار" وكيفية استنطاقه للمناضلة الجزائريّة " لويزة" البالغة من العمر 20 سنة والمنظمّة إلى السلك الثوري، وذلك بتعرضها لفعل الإغتصاب الذي كاد أن يودي بحياتها « كان الأمر صدر إلى النقيب "قرزياني " ،مساعد الجنرال "ماسو" والعقيد "بيجار"،بأن يعمق الإستنطاق مع الأسيرة ،كان "قرزياني" لا يستعمل "الخرارة" ، كما الأهالي ، أو حوض الماء في تعذيب "لويزة " كان لا ينطق لها غير الكلام الفاحش، لا يواجهها عاريًا إلا بحركاته الفاجرة كان فحسب يغتصبها، يغتصبها كلما حان وقت استنطاقه أيّاها»[2].

والأمر نفسه مع " رخمة " زوجة المناضل " بن فريحة " التي تعرّضت لفعل الإغتصاب من طرف الحركي "حمو" حيث كان يضربها ويشتمها ويظهر دلك في

---

[1]ــ كولونيل الزبربر: الحبيب السايح، دار السّاقي، بيروت، لبنان،ط1، 2015، ص109.

[2]ــ المصدر نفسه،ص116.

إعتراف "جويل" وهو يمثل دور الشخصية المناصرة للثورة « ... من فحش العبارة كما سمعها ممن كان يركب ،مثل حيوان ، امرأة لا تصرخ ،لا تتألم ،وهو ما هيجه أُصرخي يا" رخمة" ،أُصرخي للفلاقي بن "فريحة "زوجك، أصرخي قولي له ها هو حمو يذبي...ني و يذبي...الجبهة ثم ربط ذراعيها وقدميها عاريّة إلى جدع شجرة لوز وسط الدوّار وبحنجرة، كما يفصل ضرع شاه مذبوحة حزّ نهدها الأوّل فالثاني»[1].

يصوّر لنا هذا المقطع صراع الأنا والمتمثلة في المرأة الجزائريّة المضطهدة المنهارة التي تعرّضت لفعل الإغتصاب من طرف الآخر الهمجي والذي تجسّد في المستعمر الفرنسي، وهدفه الوحيد هو إذلال وتحقير الشعب الجزائري وذلك بالقضاء على رمز من رموز هويتّه وهو " الشرف الجزائري " فالإستعمار كما يقول ألفرد كاتثول سميث : « يوجّه الإستعمار أسلحته الحربيّة والعلميّة والفكريّة والإجتماعيّة والإقتصاديّة إلى العالم الإسلامي بغرض إذلاله وتحقيره وإشعاره بالضآلة والخنوع»[2]

ومن الإستراتيجيات التي اعتمدت عليها السّلطات الفرنسيّة أثناء تواجدها بالأراضي الجزائريّة نجد عمليات التعذيب التي مارستها على رجالات الثورة وذلك بتنفيد الخونة وهذا ما حدث مع المناضل "سعيد المملوكي" هذه الشخصية الثوريّة التي تعرّضت إلى أبشع أنواع التعذيب من طرف الخائن "قيزا" بهدف انتزاع معلومات خاصة بالتنظيم الثوري: « " أربطوه إلى الخرّارة !" أوصل الحركي الأوّل بخصيتي "سعيد المملوكي" المربوط فوق سرير ميدان متهرئ ممسك أحد الخيطين الكهربائيين الخارجين من آلة موّلد التيار المتردد المنصوبة على ثلاث قوائم مثل حشرة بغيضة،وممسك الخيط الثاني بصوان أدنه... »[3]

---

[1]ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح، ص145.

[2]ــ الإستعمار والإسلام: أنور الجنيدي، دار الأنصار ــالقاهرة ــمصر ،دط، ص8

[3]ــ المصدر السابق ، ص151.

ومن هنا يمكن القول بأن الإيديولوجيّة السائدة في هذا المقطع السّردي هي إيديولوجيّة المستعمر«فهي تستخدم للسيطرة على الطبقة المستغلّة، بل تستخدم أيضا وتصلح لتجعل منها هي ذاتها طبقة سائدة، بأن تجعلها تقبل علاقتها المعيشة مع العالم كأمر واقع ومبرّر»[1].

وبالتالي فالمدّونة جاءت كرد فعل على تلك الإيديولوجية التي أصبحت لازمة ضروريّة لوجود الآخر المستعمر من أجل تحقيق وجوده وبسط أنظمته داخل المجتمعات المستعمرة معتمدا في ذلك على العنف والقمع لجميع أجهزة الدولة.

هذا فيما يخص الإتجاه الأول، أما الإتجاه الثاني فتمثل في براغماتية الجماعات المسلّحة « الإرهاب» والتي كان هدفها: « توحيد صورة أفرادها من حيث البنية الفكريّة الواحدة، بعيدًا عن الإختلاف مرتكزاتها النقل لا العقل»[2].

هذا فيما يخصّ الإتجا ه لأوّل،أمّا الإتجاه الثاني فتمثل في براغماتية الجماعات المسلّحة وهذا ما يعرف بالإرهاب « وهو من أعنف الظواهر، يهدف مرتكبوها إلى إشاعة الذعر والرّعب والترويع في المجتمع ب اتّباع أساليب خطيرة، كالقتل والحرق والنّهب والتدمير، يكون موجّها نحو المدنيين والمؤسسات والحكومات على حد سواء ليخلق حالة من عدم الاستقرار، تنعكس سلبًا على البناء الثقافي والإجتماعي والإقتصادي والسياسي في المجتمع»[3]

والجزائر من بين الدول التي تعرّضت للعنف الإرهابي و يعود السبب في ذلك إلى التغيير الإجتماعي الذي عرفته البلاد بعد فشل الخطط التنمويّة ودخولها مرحلة عدم

---

[1]ــ الرّواية والعنف: شريف حبيلة، عالم الكتاب الحديث ــ أربد ــ الأردن ،ط1 ،2010 ، ص231.

[2]ــ المرجع نفسه،ص ن.

[3]ــالإرهاب والتطرف من منظور علم الإجتماع : حسين عبد الرحمان وأحمد رشوان ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ،مصر، (د ط) 2002، ص34.

الاستقرار في جميع الأصعدة الثقافية،الإجتماعية، الأمنيّة، السياسية، وقد اتخدت هذه الظاهرة أوجه عديدة لتطبيق خططها الإجراميّة نذكر منها: العنف السياسي، والذي كان هدفه: « زرع الخوف والضغط على الضحايا، وكانت هذه التهديدات تخصّ أساسًا الجامعيين والمدرّسين لإجبارهم على توقيف الدروس (...) وكذا الصحفيين ورجال الأمن وكانت هذه التهديدات تتم عن طريق إرسال طرد فيه كفن»[1]

فالعنف السياسي الذي اعتمدت عليه هذه الجماعات يقوم أساسًا على القتل أو محاولة القتل «التهديد» الموجة إلى شخصيات مثقفة كالأساتذة والطلبة أو شخصيات تستغل مناصب سياسية.

وأبرز من مثل هذا الإتجاه في الرّواية نجد شخصية الإرهابيين "الزوبير" قائد المجموعة المسلّحة و " لحمر زغدان" الذي يمثل أحد أفراد المجموعة، فالشخصية الأولى لا نلمح ظهورها كثيرا في الرّواية، أما الشخصية الثانية فقد تعرّفنا عليها من خلال تداعيات "جلال" و استنطاقه له عندما وقع أسيرا في قبضته، "ولحمرزغدان" نموذج عن الآخر المختلف في تفكيره وعقيدته المتطرفة، ويظهر ذلك في قول "الطاوس" «إذ جلس على كرسي حاسر الرأس في عباءة قهويّة قصيرة من النّوع الأفغاني، وسروال داخلي تحتها، محتذيا نعاله بدل التنيسة»[2].

فهذا المقطع السردي يحيلنا إلى المرجعية الإيديولوجية "لزغدان" هذه الشخصية التي تبدى تأثرها الكبير "بالأفغان" وذلك من خلال تقليدهم في اللباس وبالتالي 'فشخصية "لحمر زغدان" شخصيّة متمّردة متطرّفة في سلوكها وأفكارها، تحث دائما على الإنتقام من المجتمع وتقاليده ومن نماذج التطرّف نذكر: حادثة إغتصاب الفتاة:

---

[1]ــ إدارة النظام السياسي للعنف في الجزائر (1988،2000)،بوشناقة آمال، آدم قبّي، مجلّة الباحث،ع3،2004،ص129.

[2]ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح، ص229.

« تلك الفتاة الطالبة التي إختطفها ليتزوّجها زواج متعة فمنعت عنه،ف اغتصبها وعصته في المرقد فضربها حتى الموت، تصرخ في وجهه بصوت ممزّق امتصّته السماء»[1]

فهذه الفتاة كانت ضحيّة التفكير المنحرف الذي يميّز الآخر المختلف الذي يمتلك إيديولوجية متسلّطة مبنية على التَّفنن في أنواع التعذيب والتقتيل والتربّص لضحاياه والكيد لهم.

فإيديولوجيّة "لحمرزغدان" تعبر عن فكر استئصالي يرفض الآخر ويمقته، ويحمل عنه أفكار مسبقة تنم عن الكره والحقد ومحاولة الإلغاء،وهذه النظرة المتطرّفة أباحت له شرعية ممارسة العنف بهذف الوصول إلى السلطة، ونلمس ذلك في اعترافه لجلال:

« ــ كلنا مؤهل لأن يظلم ويقتل مثل أي جلاّد

ــ إلى درجة التقتيل الجماعي !

ــ واحد أو جماعة أو ثلث أمّة، هل يغيّر العدد شيئًا إذا كانت الغاية إصلاح البقية»[2]

فغاية كل متطرف هو تحقيق المصلحة الفرديّة حتى وإن كان الثمن قتل أمة بأكملها وذلك بحجة الإصلاح وكأنه ذات رسوليّة أو مهدي منتظر جاء ليصلح حال الأمّة وينشر الإسلام.

[1] ــ كولونيل الزبربر :لحبيب السا ئح ، ص 238

[2] ــ المصدر نفسه ، ص244.

ويستمر "لحمر زغدان " في عملية التذكر، وذلك من خلال استرجاع بعض المواقف التي وقعت في الماضي [1]، كحادثة قتل والده والتي اعتبرها من أهم المبررات التي دفعته وزجّت به في حضن هذه الإيديولوجيا المظلّلة:

«ففي بيته وسط إخوته الأربعة بين أخواته الثلاثة أمام أمه تصرخ في وجه والده:" أنت خنزير " لأنه صفعها بشدة مرّة أخرى صائحًا: " قلت ليمّاك يكفي ! أنت أرنب؟ اشربي الحبوب، من أين أجيب الخبز والحليب لهذه القوارض؟... "أنا سأذبحك "! فخطف "لحمر" السكين من يده... غارسًا أيّاه في بطنه حتى المقبض»[2]

"فزغدان" كما صوّرته المدوّنة شخصيّة م هيبة لا يتج رأ أحد على مخالفتها أو معارضتها وإلا كان مصيره قطع الرأس بعد أن يحكم عليه بالكفر والخروج عن أمر الجماعة، ويظهر ذلك في الحوار الذي جمع بين الآخر المتطرف والآن الراغبة في الإصلاح والتغيير والممثّلة في شخصية "جلال"

«ــ أما السيف فقد استوليتم عليه يوم المداهمة

ــ كم بريئا قطعت رأسه به؟

ــ بريئا، لا أذكر

ــ فيم كنت تمسح الدم؟

ــ الدم في ثياب القتيل»[3].

[1] ــ ينظر، الإيديولوجيات وبنية الخطاب الرّوائي في روايات عبد الحميد بن هدوقة: عمر عيلان، ص209.

[2] ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح، ص233.

[3] ــ المصدر نفسه، ص244.

نقلت لنا الرّواية نموذج من نماذج التطرّق والممثل في شخصية " لحمر زغدان" هذه الشخصية المهيبة المتميّزة بالجمود الفكري وعدم القدرة على تقبّل أية معتقدات معتبرًا أن معتقده صادق فيميل بذلك إلى إدانة كل مختلف معه في الرّأي.

2/ براغماتية السلطة:

طرحت الرّواية قضية حسّاسة لطالما عانى منها المجتمع الجزائري ولازال، وهي قضية الفساد وربطته ربطا مباشرا بالسلطة وانتهاك مسؤوليها للمال العام، إلا أنها لا تشير إلى شخصيات بعينها وإنّما أشارت إلى فساد السلطة عامة عن طريق أجهزتها ومسؤوليها وذلك من خلال حديثها عن الأزمة.

والملاحظ على نص المدوّنة أنها تجتنب التفصيل حينما يتعلق الأمر بالسّلطة إذ ترمز إلى أفرادها بضمير الغائب "هم"، ونلمس ذلك في المقطع الحواري الذي دار بين "جلال"وزوجته "باية"

«رائد المجموعة عمر راوي راح ضحيّة لمقتضيات الدّولة، بفعل تورّطه مع العميل الفرنسي "برنار" لإدخال شحنة أسلحة موجّهة للجماعات المسلّحة.

ــ كان يمكن أن يحاكم

ــ لا أحد كان يضمن أن لا ينطق بأسماء الضالعين معه.

ــ لماذا أبقي على العميل الفرنسي؟

ــ لمبادلته.

ــ لا شيء كان يدل على أن عمر راوي يفعل ذلك كان أحد رفاقك في المدرسة وظل صديقا لك، أكل ملحنا... »[1].

فالعميل الفرنسي "برنار" من بين الشخصيات المندسة في أجهزة الدّولة وبالتالي فهو مطلع على تلك الخطط الانتهازية التي يقوم بها بعض أفراد السّلطة، والإبقاء عليه كان أمرًا ضروريًا وذلك تحسبًا لكي لا يتم اكتشاف أعمال السطو والنهب لأموال الدولة من طرف هؤلاء الأفراد، فهذا العميل إذن من بين الأفراد الذين ساهموا في تدمير البلد بدلا من بنائه وتطويره والهدف من ذلك هو خدمة مصالحهم الشخصيّة وإكتساب مبالغ مالية ضخمة، وكان السبيل لذلك هو توجيه أصابع الاتهام إلى الرّائد "عمر راوي" الذي راح ضحية لتلك المخططات الأنانية.

نستشف من هذا الحوار وجه من أوجه فساد السّلطة والمتمثل في تعاونها وتشجيعها على نشر الجريمة والإرهاب وذلك من خلال تعزيز هذه الجماعات بشحنات من الأسلحة وبالتالي فالإيديولوجيّة السلطوية تعتمد على مجموعة من الأفكار المرتبطة بالأفراد أو الجماعات بمختلف توجهاتهم، والأمر اللافت للإنتباه أن هذا النّوع من الإيديولوجيات يرتبط بالطبقات البرجوازيّة وبالشخصيات الانتهازيّة التي تسعى إلى استغلال كل ما يخدم مصالحها بتوجّهاتها الفكريّة والثقافية.

ومن مواطن فساد السلطة نجد تعاونها وتشجيعها على الجريمة خاصة إذا تعلّق الأمر بالسّرقة لأموال الدولة ونسبها إلى جهات معيّنة ويظهر دلك في قول جلال : « الذين يبيعون خلسة شحُنات البترول والغاز في عرض البحر، أو يقايضونها بالمشروبات الرّوحية والأجبان والألبسة ومواد الزينة والزخارف؟ وأصحاب الحاويات الذين يغرقون السّوق بمحتوياتها من غير دفع دينار واحد ضريبة للخزينة العموميّة؟

[1] ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح، ص ص 40، 41.

والذين يحوّلون إلى الخارج حقائب العملة الصّعبة تحت غطاء الحماية الدبلوماسيّة أو البراغماتية»[1].

ويواصل "جلال" كشف خبايا السّلطة والمتمثل في فساد الأجهزة الأمنيّة التي أصبحت وسيلة في يد بعض السّاسة لإشباع نزواتهم بمبالغ ماليّة طائلة وذلك بطرقهم الخاصّة، ويظهر ذلك في الحوار الذي دَار بينه وبين "الرّائد عليش".

« خوفي من هؤولاء الساسة الكواسر الذين يزرعون الإحباط وينمّون الفشل

ــ لأخطائهم و نزواتهم وضيق أفقهم ونقص كفاءتهم ين نشر في نسيج المجتمع كمرض فتّاك كل هذا السّخط والتذمر والانسياق إلى الجريمة»[2].

تشير ملفوظات الحوار إلى الهدف الرئيسي الذي تسعى السلطة إلى تحقيقه والمتمثل في بلوغ المنفعة الخاصّة، وذلك بااعتمادها على أجهزة الدولة وتحكمهم في نشاطاتها رغم نقص خبرتهم وكفاءتهم لأن همّهم الوحيد تحقيق مصالحهم الشخصيّة على حساب مصالح الشعب.

ويستذل "جلال" في حديثه عن جرائم السّلطة إلى قضيّة تاريخيّة لا يمكن تزييفها ولا إنكار حقيقتها والمتمثلة في ظاهرة الإغتيالات والتصفيات الجسدية لرجالات الثورة، ومن بينهم "عبّان رمضان" و" محمد شعباني " ونلاحظ ذلك في الحوار الذي دار بين "جلال" ووالده "مولاي بوزقزة"

« "الثورة، قطة تأكل أولادها" هكذا كنا نسمع .

ــ ذلك هو اليقين السّائد بيننا.

---

[1] ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح، ص41.

[2] ــ المصدر نفسه، ص ص 232، 233.

ــ إلتهمت كثيرا ممن فجّروها وقادوها.

ــ خلالها كان عبّان رمضان أشهر ضحيّة لها، بعدها جاء الدّور على "محمد خميستي" ثم" محمد شعبان " أصغر ضابط سام برتبة عقيد في صفوف جيش التحرير»[1].

ويرجع "جلال" هذه القضية إلى تلك الانقسامات التي عرفتها الثورة، وذلك رغبة في استحواذ بعض الشخصيات على مراكز القيادة داخل النظام الثوري، ويركّز حديثه على العقيد "محمد شعباني" مستحضرًا في ذلك حواره مع "باية"

«... إن أنا مّت يومًا فلبعض الحزن أيضا على إعدام عقيد حرب التحرير بيد إخوة له، عمره30 سنة.

ــ "شعباني" راح ضحيّة لأخطاء الإستقلال

ولتروع الاستحواذ على السّلطة دون اقتسام أيضا ولأسباب أخرى أكثر خطورة سيعريها التاريخ»[2]

فحقيقة التاريخ المنسي والمغيّب أن العقيد شعباني من بين الأشخاص الذين أتهموا بالانفصاليّة والتمرُد على سلطة الدولة ورفض تنفيذ أوامرها العليا فهذه الشخصية إذن راحت ضحيّة لتلك الأفكار الإيديولوجيّة التي تبنّتها السلطة البراغماتية وذلك سعيًا منها في بناء قاعدة تاريخيّة مزيّفة ولا أساس لها من الصحة، ولعل الشيء الأكثر خطورة هو ترسيخ هذه الأفكار بصورة خاطئة في ذاكرة الأجيال.

[1] ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح، ص271.

[2] ــ المصدر نفسه ، ص272.

وبهذا يمكننا القول أن الرّواية رصدت لنا أهم الأفكار الإيديولوجيّة التي إعتمدت عليها السلطة بمرحلتيها «الثورة ــ الإستقلال»، ويتجلى ذلك من خلال قدرة الكاتب في إبراز بعض الحقائق الغائبة التي تبنتها السلطة بهدف تحقيق مصالحها الفرديّة وذلك على حساب المصلحة العامّة مستغلة بذلك عواطف الناس وحماسهم لتزداد قوّة وسطوة وسلطة.

3/ البعد الإيديولوجي الوطني الثوري (إيديولوجية الرّفض والتّغيير)

تستمد هذه الإيديولوجية وجودها النصّي داخل المجتمع من خاصيّة الثورة، التي تحمل أكبر معاني تثير الوعي ضد الوجود الأجنبي هذا في الزمن الأوّل زمن الإستعمار إذا اتسم الخطاب بنزعة التغيير الجدري الرّافض لكل أشكال الهيمنة الإستعماريّة، أما الزمن الثاني زمن الإستقلال فقد أتخد الخطاب الإيديولوجي بنزعة التغير الجزئي.

إن الحديث عن إيديولوجيّة الرّفض والتغيير في نص المدوّنة يتمحور ضمن مرحلتين:

أــ مرحلة الثّورة:

تمثّل الثورة التحريريّة أحد أهم النقاط التي كانت ولا زالت موضوع لمعظم المبدعين الجزائريين "كأحلام مستغانمي "في ثلاثيتها المشهورة، و "الطاهر وطار " وكذلك "الكاتب ياسين "وغيرهم من المبدعين وهذا يؤكد أن«الثورة قد ظلت المرجعيّة الإيديولوجيّة والفنيّة التي ينطلق منها معظم الرّوائيين»[1]

[1]ــ الكتابة الرّوائية النسويّة العربيّة بين سلطة المرجع وحريّة المتخيّل: بايزيد فاطمة الزهراء، بحث مقدّم لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث، كلية الآداب واللّغات، جامعة الحاج لخضر ، باتنة ، 2011 ــ 2012، ص281.

ترصد لنا رواية "كولونيل الزبربر "، أحداث واقعية مستمدّة من عمق ثورة التحريركما رسمت لنا الإستراتيجية التي وضعها الشعب الجزائري ضد المستعمر الفرنسي.

وقد أوكل الكاتب مهمة سرد الأحداث لبطل المرحلة الأولى "مولاي بوزقزة" بلاعتباره أبرز مجاهدي صفوف جيش التحرير الوطني، بالإضافة إلى شخصيات ثانوية تنحصر في فئات مثقفة وأخرى عادية وكل شخصيّة وظفت من طرف الكاتب كان لها دور بارز في نمو أحداث الرّواية.

ومن نمادج هذا الفكر نجد الخطاب الذي وجّهه "القائد بوزقزة" إلى جنود فصيلته: « الواجب يناديا، نحن نقاتل بشرف الرجال، العالم كلّه يسمع لأخبارنا، يقدّر شجاعتنا وهذه الأرض تنصرت لمطالبنا: الحرية أنتم تعتدون على أي قانون، نحن نحارب من أجل إزالة القوانين الظالمة في حقّنا، أنتم لا تريدون سوى تصفيّة هذا الإعتداء المتواصل... »[1]

يصوّر هذا المقطع مرحلة اندلاع الثورة وأهم الشخصيات التي خطّطت لها به دف إنجاحها على الصعيدين السياسي والعسكري.

كما تضمنت المدوّنة خطابات أخرى داعية وم حرضة إلى التغيير وذلك بلسان المثقف الجزائري الحامل لمواقف وقيم واعية، ويتضح ذلك في شخصية الطالب الجزائري "عاشور" الذي التحق بصفوف جبهة التحرير منذ إضراب 19 ماي 1957 بيد" القايد بن عمر" « بدأت مسيري، حضرة القايد، نحو هذه الغاية يوم عدت آخر مرّة من دار جدّتي في الرّيف، كنت أشعر بغصّة في الحلق وعصرة في القلب، وأنا أرى الحال التي عليها أهالينا من الفقر والمرض والضياع

[1]ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح، ص62.

ــ لذلك لم يعد الغضب يكفي

ــ قلت: لابدّ أن يتوقّف هذا الظلم»[1]!

فشخصيّة "عاشور" مثلت بصدق صورة لنموذج الطالب الجامعي الذي ضحى بمستقبله دفاعًا عن القضيّة الواحدة وهي تحقيق الحريّة وإزالة الظلم عن الشعب الجزائري.

وتتضح إيديولوجية الرّفض في صورة الطبيب الجزائري الممثّلة في شخصية "الطاهرالسنوسي" متخذاً من الطب وسيلة للدّفاع عن الوطن مثله مثل أي جندي حمل السلاح للقضاء على العدو، ونلمس ذلك في المقطع الحواري الذي دار بينه وبين "قايد بن عمر":

«ــ واجب !الطب في حرب تحرير كهذه لا يقلّ أهميّة عن السّلاح، والطبيب في خضمّها يمنح الثقة في شرعيتها.

ــ وبتضحيّة أيضا، لأنه يمكنه أن يفقد في لحظة واحدة امتيازاته إن لم تكن حياته

ــ لا مفرّ من ذلك لتحقيق ما قام من أجله شعب ولد الطبيب بين أحضانه وسط هذه الآلام»[2].

ولم تقتصر إيديولوجيّة الرّفض على فئة المثقفين فحسب بل تعدّت إلى فئات أخرى من الشعب الجزائري ومثلت الرّواية لهذه الفئة بشخصيّة الجندي "بن فريحةــ" زوج المغتصبة المقتولة "رخمة" التي تعرضت للاغتصاب من طرف الحركي "حمو"

[1]ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح، ص87.

[2]ــ المصدر نفسه، ص ص 72، 73.

« أنا هو بن فريحة زوج رخمة، وأنا الجبهة (...) "أنا كلبك آسيدي ، فبحركة صارمة من شماله، كمش بن فريحة كمشة واحدة ذكر حمو ثم حزّ باليمين من الجدر(...) على ما أفزع الطيور من الأشجار المحيطة، ودكّ له كل شيء في فمه داميا(...) »[1].

ب/ مرحلة الإستقلال:

يستمر الكاتب في تصوير الأحداث بعد الإستقلال،إذ تعد هذه المرحلة من المراحل الخطيرة التي مرّت بها الدولة الجزائرية حديثة الإستقلال، وهي مرحلة تصفية الحسابات خاصة بعد الفساد الذي مسّ الأنظمة السلطويّة بالإضافة إلى الدّمار الذي خلفته الجماعات المسّلحة، ويتضح المنظور الإيديولوجي الرافض من خلال الشخصيّة العسكريّة "جلال" الملقب "الكولونيل الزبزبر " تلك الشخصية المثقفة التي تناس ت همومها في سبيل تحقيق أمن واستقرار البلاد، وقد ضحت بكل مالديها في سبيل وطنها رافضة إستراتيجية العنف ضد البلد، ومن بين هذه التضحيات نجد فقدانه لإبنه "ياسين" الذي قتل من طرف الجماعات المسلّحة، ويظهر ذلك في قول الطاوس : «ها هو يحس موت ياسين خنجرًا ينغمد في قلبه "لماذا يا قدر تفجعني في ابني؛ أأخد ا مني لدين ما لن أعلم أبدًا قيمته ولا متى افترضته؟ وكيف رضيت له أنا أن ينضم إلى جهاز الأمن، بدل اختصاص عالي في الجامعة، وكان ذكيا مثابرًا بالقدر الذي يخترق أي وظيفة أخرى في الحياة المدنيّة؟ ألا بتلائي أنا العسكري غير الاستثنائي في صفوف جيش دولة بأكمله؟»[2]

تلك الحادثة كانت بمثابة للإنطلاق "لجلال" وذلك في محاربة الظلم والفساد الذي تعاني منه الجزائر، ومن الأعمال النضالية التي قام بها: « إختراق حواجز الجماعات

[1]ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح، ص ص 146، 147.

[2]ــ المصدر نفسه، ص46.

المسلّحة ونصب لها الكمائن، وفك أسيجة ألغامها المزروعة واخترق تحصيناتها في جبل الزبربر وقاومها بكفاءة قتاليّة، فاستحقّ بشرف رتبة مقدم»[1].

"فجلال" رجل واعي يمتلك قيم نبيلة هدفها الوحيد تغيير الأوضاع المزريّة التي وصلت إليها البلاد، وتطهير الأماكن المقدّسة في عهد الثورة، الأماكن التي طالتها أيادي التطرف بعد الاستقلال.

ومن تلك الأماكن "جبل الزبربر " ذلك المكان يمثل رمزًا من رموز الثورة التحريريّة المجيدة.

كما تظهر سمة الرّفض في إيديولوجيّة التغيير لدى هذه الشخصيّة في تصفيته لأفراد الجماعات المسلّحة كشخصيتي "لزوبير" و"زغدان "

« ــ أنت نذل لا تستحق حتى الموت كما الرّجال.

ــ حضرات، لم أكن في حالي الطبيعية

ــ كما في كل عملياتك المدميّة؟

ــ الأمير بيده كان يسقينا تلك الجرعات.

ــ ستذوق مالم تشربه في حياتك أبدًا

وأمر، بلا شعور بذنب ولا تبكين، أن يسقى الزبير من سائل حمض البطاريات لم يتزعزع للصرخة التي مزّقت غشاء ذلك الفجر (...)

وانتظر إلى أن شمّ رائحة الإحتراق بلا نار»[2]

---

[1] ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح،ص20.

[2] ــ المصدر نفسه،ص47.

يصوّر هذا المقطع السّردي أبشع أنواع العذاب الذي تعرض له" الزبير" وذلك في سبيل الحفاظ على هدوء البلد ودفعه نحو الأمن والإستقرار، فرغبة "جلال" في تغيير الوضع المأساوي الذي تواجهه البلاد دفعته إلى درجة ممارسة فعل الحرق على "الزوبير" تلك الشخصية التي طالما نشرت الخوف والرعب في نفوس الجزائريين.

أراد "جلال" من خلال ذكر هذه الممارسات أو التصفيات الجسديّة ضد هذه الشخصيات المتطرّفة أن يحكي ق صه مأساة وطنه من خلال سرد لوقائع حياته العسكريّة والأحداث التي وظّفها في المذكرات تاركًا أياها لابنته "طاوس" فتلك الأحداث تعبّر بصدق عن نزعته الطامحة للتغيير، والهدف من سره لهذه الأحداث هو كشف الحقائق وفضح المستور من أجل إعادة تنظيم الأمور والنّظر في قضايا المجتمع ومن مواطن سرده نذكر صدامه مع الجماعات المسلّحة: «... كان أزاح ستار الناقدة الأبيض ساكنا خلف المربّعات الزجاجيّة، مقشعر البدن، لزمجرة الرّعد؛ لحظة وجدها أشبه بتلك التي كان خلالها هو وفصيلته في عمق الزبربر، انتظروا أن تمرّ جماعة مسلّحة عبر مقطع الوادي اضطراريًا ! فمع لمعة البرق وهزيم الرّعد فانهمار مطر أواخر الخريف؛ أضاءت نيران رصاص الرّشاشات فوق ثلاثة أشباح على الأقل، أما الرابع والخامس فأسقطهما بطلقتين من بندقيته المزوّدة بمنظار ما تحت الأشعة الحمراء»[1].

فمصداقية هذه الحادثة تستند إلى مرجعية تاريخية واقعية مرتبطة بحاضر "جلال" وذلك أثناء مواجهته للأفكار الإيديولوجية المتطرّفة، ومن تلك الأفكار اتخاذ الدّين كوسيلة لبناء فكر ايديولوجي خاص بها وإقامة دولة الحق: « فحقيقة الجماعات الدينية تقوم على تديّن ناتج عن ظروف إجتماعية قاهرة تتحوّل إلى عقدة تظهر في شكل

[1]ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح، ص ص 51، 52.

ملتحٍ، قد يتغير بتغيّر الظروف التي أوجدته، و هنا نتحدث عن غياب الوعي والإعتقاد الصحيح المبني على قناعة راسخة وتفكير متأني يعي ما يعتقد به»[1].

فهذه الأفكار المتطرّفة جعلت من "جلال" شخصية إيجابية تسعى لأن يعيش شعبها حياة أفضل يقاوم ويدافع عن مرتكزات دينة وهوية وطنه، والعسكري هو رمز التضحية ذو نظرة ثاقبة وثائرة ضد الأوضاع متخذاً بذلك السلاح كوسيلة للدّفاع والنضال من أجل شعب مضطهد ووطن وقع تحت رحمة الإيديولوجيات الزائفة ويظهر ذلك في رفضه لإيديولوجيّة السلطة وممارستها الإجرامية بعد الإستقلال، ومن تلك الممارسات حادثة إعدام العقيد شعباني: « ولماذا صمت مولاي بوزقزة بعد أن أسكت العقيد شعباني رميًا بالرّصاص قبل ثمانية وأربعين عامًا»[2].

فهذا المقطع السّردي بمثابة محاولة ترميم وتصحيح حقائق تاريخية مخيّبة تسعى السلطة الجزائرية بعد الإستقلال إلى طمسها ووأدها في مكانها، فجاءت الرّواية بأحداثها وشخصياتها لتفضح ما طمر في غياهب التاريخ الرّسمي، ومن تلك الأحداث نجد مرحلة تصفية الحسابات التي قامت بها السلطة الإستعمارية ويظهر ذلك في سرد "الطاوس": «...وتأسّف له على الحكم على جندي بالذبح، لأنه أقام علاقة مع جنديّة أخرى، أو بقطع أنف أحدهم أو شفتيه، لأنه زخن سيجارة أو نشرب خمرًا، أو بحزّ أذن آخر،لأنه اتهم زورًا بتلقطه أخبار للعدو، أو أن يحاكم ضابط، بناء على وشاية كاذبة لتصفيّة حساب، ثم يعدم آخر،لإتهامه بضلوع في مؤامرة... » [3]

فهذه التصفيات الجسديّة تقدم لنا نمودج من فضاعة الثورة وقذارتها، قذارة خلفتها أنانيات أشخاص تخلَو عن وطنهم ورفعوا راية تحمل أفكار إيديولوجية براغماتية.

---

[1]ــ الرّواية والعنف: شريف حبيلة، ص240.

[2]ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح،ص،50

[3]ــ المصدر نفسه، ص86

المبحث الثاني: تمظهرات الهويّة في الرّواية:

1/ الهويّة والتاريخ:

لكل كاتب مرجعياته التي يعتمد عليها في إبداعه يستمد منها ما يحتاج إليه في نسج أحداث النّص وهو بدونها عاجز عن توفير تلك الآليات التي تقوم عليها النّصوص الإبداعية، ومن بين هذه الآليات نجد حضور التاريخ داخل الخطاب الرّوائي الذي يعدّ ميزة فنيّة ترتبط على وجه التحديد بوجود مستويات مختلفة مشكّلة للرّواية«التراث،الدين السياسة... »

ولعل إستدعاء الرواية للتاريخ له هدف واحد وهو تحقيق حاضرها «إن فعالية وجود المادة التاريخية في ثنايا الخطاب الرّوائي لا تبقى على صفة جامدة بعيدة عن أثر الفاعليات النصيّة، حيث إن المناقضة في هذه الحال بإستطاعتها أن تقدّم المعنى الموضوعي للتاريخ في إطار مقارنة التاريخ بالرّاهن وتقديم قراءة موضوعيّة لطبيعة المادة التاريخيّة على علاقتها بالحاضر»[1]

ولحبيب السائح كاتب واعي بتاريخه، ومن المبدعين الذين كان لهم شرف المشاركة في صنع تاريخ الجزائر وذلك من خلال الاطلاع على خباياه ومحاولة إبرازها للواقع بهدف خلق فكرة توريثه بين الأجيال، ولعل رواية كولونيل "الزبربر" من بين تلك الأعمال الإبداعيّة التي استقت موضوعها من التاريخ، ويظهر ذلك من خلال كشفها لبعض الأحداث التاريخيّة الم غيبة عن ذاكرة الأجيال، كحقيقة الخيانة والتّصفيات الجسديّة للثوّار ونلمس ذلك فيما سجّله "مولاي بوزقزة" لحفيدته "الطاوس": « يعدم سي مسعود شيهاني في العام الأوّل: 25 أكتوبر 1955، غيرة من وسامته

[1]ــ التجربة الرّوائية المغاربيّة ــ دراسة في الفاعليات النّصيّة وآليات القراءة: فتحي بوخالفة، عالم الكتاب الحديث ــ أربدــ الأردن، د ط، 2010، 412.

وذكائه تصفية كيلا يكون خل يفة القائد المقبوض عليه...وكيف لقائد محّنك مثل بن بولعيد أن يقتله، في العام الثاني: 22 مارس 1956 جهاز راديو مفخّخ ألفته طائرة العدو "جي بي" إليه، في العام الثاني: 25 سبتمبر 1956 في كمين نصبته له هو وسبعة من رفاقه دوريّة معاديّة في أحد المنازل المعزولة؟ وأي أخبار عن القائد عبّان رمضان نصدّق واستشهاده في العام الثالث 26 ديسمبر1957»[1].

ينقل لنا هذا المقطع السّردي ثلاثة محطات تاريخية وقعت أثناء الثورة نتيجة الخيانة والمؤامرة التي تعرّض لها هؤولاء الثوار، فتعاقب استشهاد هؤولاء الرّموز لم يكن محض صدفة، وإنما أمر مخطط ومدبر له، والحقيقة أن بن بولعيد والآخرون قتلوا من طرف السلطة الإستعمارية ويواصل "مولاي بوزقزة " فضحه لتلك الأحداث المضمرة كحقيقة الخائن "قنون" الذي كان عضوًا في الفرقة الإدارية المتخصّصة "لاصاص" التابعة لقوات العدو: « كان عمى موح، غداة التصويت، شاهد الجنود الفرنسيين، مدعمين بحركى حشدوا في ساحة "أفني"، بناء على قائمة أعدّها قنون لضابط "لاصاص"، كل من قاطع الاستفتاء، ومنهم أخرجوا ثماني نساء وثلاثة رجال من بينهم عميرات، الذي كان "قنون" حدّده بصفته المحّرض على المقاطعة، لأن بقية الرّجال الآخرين القادرين على حمل السّلاح كانوا التحقوا بأفواج الجيش في الجبال، وكذا الطفل "على" لرفضه الإعتراف بأنه وهو يرعى في سفح الجبل سلّم أحد المجاهدين شيئا رآه "قنون" بمنظاره»[2].

ومن نمادج الخيانة التي أوهنت جسد الثورة نجد الحركي "قيزا" والأفعال الإجراميّة التي مارسها على المجاهد الحسين«... كان الحسين مطعون الصدر مثخّن البطن، كما دلّت على ذلك آثار الخنجر عاوية بحقد على جسده العاري إذ فكه قيزا من

[1]ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح،ص128.

[2]ــ المصدر نفسه، ص101.

أنف المركبة العسكريّة وتركه يسقط أرضًا في ساحة المدينة، حدث ذلك إثر كمين مهلك نصبته لفصيلة "مولاي بوزقزة" التي كانت في حال عبور، فرقة من الحرك ى مدعومة بمظليي "بيجار" في سفح جبل الزبربر، قادها قيزا نفسه»[1].

تمثل هاتان الشخصيتان إحدى نمادج الخيانة وذلك بممارسة فعل التعذيب لأبناء الثورة فدنّستا بذلك معالمها ونزعت عنها صفة القداسة، إذن فالروايّة هنا تفضح ما غيّبه التاريخ الرّسمي من حقائق ومازوّره الإستعمار الفرنسي.

تلك الأحداث المؤلمة والمخيّبة لآمال الأجيال تركت مجموعة من التساؤلات في ذاكرة "الطاوس" فهي فتاة ترمز إلى جيل ما بعد الإستقلال (الحاضر»، هذه الحفيدة الضائعة التي تناشد التاريخ بحثا عن هويتها الحقيقية في ظل تلك المؤامرات: «أنا الحفيدة صار لي أن أبلغ هذا العمر كله أربعًا وثلاثين سنة الآن، لأعرف أن رابح الزواوي، الذي أصبح ضابطا في الجيش الوطني، كان ضمن الفرقة الخاصّة التي أمّنت نقل الأسير من سجنه إلى موقع إعدامه قبل ثمانية وأربعين عام»[2].

إنه صمت قاتل لتاريخ كان سببا في حيرة "الطاوس" وإدخالها في بوتقة الحزن والهم والألم: « من أين لي أنا، وريثة الهمّ والدمّ والفخر أيضًا، أن أفك خيوط هذا التشابك كلّه؟ كيف يمكن خرق هذا الصمت الصخري عن تلك الملابسات الفعلية والحقيقية، ولو كانت مخجلة»[3].

ومن هنا يبرز التاريخ كأهم عنصر من عناصر الشخصية ومسيرتها في البحث عن هويتها المفقودة، فالفهم الصحيح للماضي يعين على بناء الهوية الصحيحة وحمايتها من الانصهار فكما أن الإنسان يحتاج إلى ذاكرة فهو يحتاج إلى تاريخ، وهذا الأمر

---

[1]ــ كوتونيل الزبربر :لحبيب السائح ص148.

[2]ــ المصدر نفسه، ص177.

[3]ــ المصدر نفسه ، ص129.

يغيب عن شخصية "الطاوس" هذه الشخصية التي تعيش حالة من الضياع وعدم الإستقرار وذلك بسبب جهلها لحقيقة ماضيها، وهي الحقيقة نفسها التي تساعدنا على بناء مجتمع متماسك: « ذلك أن دراسة الماضي تسهم في فهم الحاضر بشكل أفضل وذلك لأن بناء المجتمع الحالي له أصول في الماضي وكلّما تحسنت معرفتنا بهذه الأصول أصبحنا مهيئين بشكل أفضل للتغلّب على الصعوبات التي تواجهنا»[1].

والأمر الذي يؤرّق "الطاوس" هو حقيقة تلك الأحداث المدفونة في غياهب التاريخ الرّسمي كان لابدّ من الإطلاع عليها، ويظهر ذلك في قولها: « متراجعة بظهري، إني فوق الكرسي أمام طاولة المطبخ، شابكة يديّ خلف رأسي، ها أنا أستمع لنفسي تتذب لي بطعم المرارة في ريقي، أني لم أقرأ عن تلك الأحداث في مقرّر دراسي خلال مساري كلّه، ولا كنت شاهدت صورًا منها أو طالعت في وسيلة إعلامية رسميّة؛ إلا هذا التخمين وذاك من المتورّط فيها، أو هذا الريبورتاج وذاك من قناة بث متحيزة أن يوجه أسلحتهم إلى صدور بعضهم بعضا في صبح الإستقلال من كانوا أمس جنبًا لجنب يقاتلون عدوًا مشتركا»[2].

"فالطاوس" تعاني حالة من القلق نتيجة مستقبل تجهل نتائجه وحاضر يعاني انحلالا وفسادًا على جميع الأصعدة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفي حدود هذا الضياع ومقاومته حاول الكاتب أن يرفع جدل الهويّة والتاريخ إلى حدوده القصوى، وأن يكون رائد مجيدا في مخاطبة التاريخ و إرهاقه بالمساءلة، فلا يساءل ماضيه إلا من أرهقه الحاضر ولا يفتش عن هويّة ضائعة إلا من حاصره حاضر يفتقدها وهذا الإفتقاد هو الذي أتاح له تخليد التاريخ كمعلم لبناء هذه الهويات المشتتة ووجوب نقله وتوريثه

[1] ــ تفسير مسار التاريخ: رأفت الشيخ،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ــ القاهرة ــمصر ،دط ،2000 ،ص16.

[2] ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح، ص54.

للأجيال بطريقة صحيحة ومن بين المعالم التاريخية التي تعرّضت لها المدوّنة نجد " تيمة الثورة" والروح القتالية التي تمتع بها من خاضوها ضد الإستعمار الفرنسي، ومن بين رموزها نجد الشخصية النضالية "بوزقزة" هذه الشخصية العظيمة التي حاربت الفساد والظلم بهدف الحصول على الحرية، ويظهر ذلك في قول "الطاوس" « ءنا في موقع الفصيلة في غابة الزبربر نحن في العام الرابع 1958 من زمن الحرب،انْسكن مولاي بوزقزة نهائيا بهاجس الحرية.

فقبل عامين كان حمل السّلاح في زهو الشباب، في الخامسة والعشرين فترسّخ له إيمان بأن قدره إن أجاءه إلى هذه الدنيا في هذا الوقت الكئيب من بلوغ الإحتلال أعلى مراحله الاستبدادية فإنما ليخوض معركته، لاشيء غيرها، لإنهائه، إنه، من وجع تشنّج عزاه إلى القلق، يسند ظهره إلى صنوبره أبيّة نحن نعيد تاريخ الجزائر إلى مساره، نحن نضع حدثه الجديد»[1]

ولكي تخفّف "الطاوس" من ءذه المعاناة كان لابدّ لها من استرجاع بعض الصفحات المشرقة التي سجّلها الأجداد بدمائهم دفاعًا عن القيم والمبادئ التي وجدوا لأجلها علما بأنهم خلقوا في سبيل الدفاع عن الوطن وهويته، ونلمس ذلك في استحضارها لبعض المعارك التي خاضها "بوزقزة": « ثم ها هو ركض نحو الوناس، بطلقة في البطن فألقى الآخر سلاحه ورفع يديه فصرخ فيه المصاب " ياغبي !" وبحركة يأس خاطفة استل خنجره وحزّ رقبته، فيما كبّل الونّاس يدي العسكري الآخر وقاده إلى الخلف»[2].

فذكر "الطاوس" لهذه الأحداث يوحي بحقيقة واحدة وهي ضرورة امتداد الماضي واستمراره في الحاضر، فالتاريخ ليس هو الماضي فقط بل هو الماضي متصلا

[1]ــ كولونيل الزبربر:لحبيب السائح ، ص61.

[2]ــ المصدر نفسه ،ص64.

بالحاضر أو تفسير الحاضر بجدور الأحداث في الزمن الماضي: « فالحقيقة إذ ا قلنا أن التاريخ هو نهر الحياة، فإن هذا النّهر متّصل السير فيه قبلنا وفي زماننا وبعد زماننا»[1].

يحاول الكاتب من خلال ذكر هذه الأحداث – بلسان الطاوس – أن يكشف للقارئ ما تم السكوت عنه من طرف السّلطة في فترة الاستقلال وهذا ما يجعل من الرّواية نص يبحث بشكل دائم ومستميت عن تلك العناصر المنسيّة والقلقة الغائبة عن هوية جيل ما بعد الإستقلال، وبروز التاريخ يوحي بأن الكاتب مطلع على المسار التاريخي للجزائر ومتأثر به، ويظهر ذلك من خلال استرجاع بعض الأحداث على لسان "الطاوس" هذه الشخصية التي تعبّر عن الإمتداد بين جيل الثورة "بوزقزة" وجيل ما بعد الاستقلال "جلال"، ومن تلك الأحداث نجد قضية قتل العقيد شعباني: « بعد أن أُسكت العقيد شعباني رميًا بالرّصاص قبل ثمانية وأربعين عاما، كيلا يقول شيئا آخر... »[2]

يظهر هذا المقطع السّردي ذلك الصّراع الجدلي بين ماضٍ يحفل بالإنتصارات وحاضر يعاني العجز والتدهور، وهذه المعاناة سببها صمت قاتل لتاريخ لطالما دنّست هويته في هذه الأرض، وهذا الضياع والتشظي جعل من التاريخ إنسانا يطالب بحقه: « فقبل ليلة صقيعة مفتقدا مراكز الحراسة، تمثل له التاريخ، بين الأغصان المخلّلة بنور القمر، مخلوقا هرما متهرئ الأسمال " أريد وجهي الذي أضعته في هذه الأرض، أبغي لباساً أنبعث به على أبدان الرّجال والنساء والأطفال المنتظرين " ثم راح يتوارى عنه في تلاشٍ بطيء فهتف من خلفه سنزفّ لك هذه الأرض لتكون ذاكرتك»[3]

فالتاريخ هنا يمثل الإنسان الضعيف العاجز عن تحقيق أدنى متطلبات حياته كاللباس وهذا الضعف كان سببه ضياع هويتهوقداستهذا التاريخ الذي يمثل ذاكرة

[1]ــ تفسير مسار التاريخ: رأفت الشيخ، ص16.
[2]ــ كولونيل الزبربر لحبيب السائح ، ص60.
[3]ــ المصدر نفسه ،ص61.

الرّجال والنساء والأطفال، وهو تشخيص أراد الكاتب من خلاله أن يجسّد لذلك الصدع القائم بين الماضي المنير والحاضر الرّمادي الذي يعمّه الفساد والخيانة.

2-الهوية والإيديولوجيا:

ارتبطت الإيديولوجيا في الرواية بالثورة وبعد الإستقلال، فميل الكاتب إلى هذه الأفكار يعني أنه أضطهد في ظل الظروف القائمة، تلك الظروف التي جعلت من الشخصيات التي وظّفها الكاتب شخصيات متوترة متأسفة عن الماضي وخائفة من الحاضر والمستقبل: « إن الإيديولوجيات هي عبارة عن ردّ فعل للتوتّرات الناشئة في المجتمع، وأنها تبلور لحجم هذه التوتّرات بما يحفظ للمجتمع أمنه واستقراره»[1]

ومن بين الأفكار التي وظّفتها المدوّنة واعتبرتها من أهم المرجعيات التي اعتمدت عليها الهويّة داخل الرّواية نجد .

المرجعيّة السياسيّة:

احتلت السياسة مساحة هامّة من المدوّنة، سواءًا كسؤال مركزي أو كإشارات تتوزّع داخلها ويرجع سبب إهتمام الكاتب بالسياسة كون وضعها الإجتماعي لا ينفصل عن الوضع السيّاسي العام، ومن القضايا التي تطرّقت لها الرّواية ضمن محور السياسة كان موضوع "الإستقلال" وتلك الأجواء التي ميّزت الشوارع الجزائرية بهذا العيد، ويظهر ذلك من خلال إسترجاع "جلال" لصورة المجاهدين أثناء نزولهم من الجبل: « إذ وطئت أقدامهم شوارع المدن والقرى في استعراضات النّصر، تلك وسط مدّ بحار من الزغاريد والهتافات والدّموع، و خفق الرّايات وأصوات الأناشيد وأبواق السيارات

[1]ــ الإيديولوجيات واليوتوبيا في الأنساق المعرفية المعاصرة ــ دراسة مقاربة بين كارل مانهايم وتوماس كون: عبد الله عبد الوهاب محمد الأنصاري،ص60.

وإيقاعات آلات النقر والنفخ والنحاس والوتر الموسيقية ، كانت كأنها فعلا مم تخيله لصور ملائكة حطهم الله آية »[1].

تلك الفرحة سرعان ما تحوّلت إلى صدمة بالنسبة للجيل الجديد جيل ما بعد الإستقلال بمن فيه "جلال" ذلك الفتى الطّموح كان يسعى كغيره من الجزائريين إلى تحقيق الأمن والإستقرار لكنه لم يجن غير الخسارة والحسرة على وطن يشهد إستعمارا جديدا ومن نوع خاص متمثل في فساد السّلطة: « الفساد بدأ يوم حوّل شخص واحد 1964 ما كان في حساب جبهة التحرير البنكي بكامله في سويسرا إلى جيبه، والبلد منهك القدرات موزّع بين تضميد الجراح من حرب تحرير، وأخرى أهليّة وثالثة على الحدود الغربيّة وبين مواجهة الفوضى... »[2].

فهذه الشخصية تعيش حالة من التشتت والضياع وذلك نتيجة ضياع القيم والمبادئ التي كان لأجلها الإستقلال ضياع سببه وجود الآخر وما يحمله من أفكار براغماتية إنتهازيّة ، ونلمس ذلك في قول "جلال" « بعد خمسين سنة تعاين أنك أصبحت على فجيعة توقيعك لساسة الإستقلال وأرباب الدولة صك على بياض ليستولوا على تاريخ حرب تحرير كتبه بدمه وغنّاه بآلامه شعب بأكمله»[3].

وبالتالي فإن الهويّة داخل البناء الرّوائي ترتبط بوعي الذات وبالأفكار الإيديولوجيّة التي تطرحها، فهي تتشكل عبر تراكم تاريخي وتتغيّر بتغير الظروف السائدة، وهي نفسها الظروف التي خلّفت مجتمع مشتظي ينهض بأعباء السياسة وعيوبها بعد الإستقلال ويظهر ذلك في قول "الطاوس": « لقد فُرض سوء تسيير التراث الوطني، وسلب الأموال العموميّة واللااستقرار(...) والكذب والإرتجالية كمنهج

[1]ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح،ص24.

[2]ــ المصدر نفسه ،ص39.

[3]ــ المصدر نفسه: ص57.

للحكم من خلال التهديد والإبتزاز وانتهاك الحريّات الفرديّة وضبابية المستقبل، وجد بعضها يتعرّض للخضوع وبعضها الآخر للخوف وللسكوت والاستسلام، كان ذلك في 19 جوان 1965»[1].

فالسّارد هنا عمد إلى ذكر بعض الصفات السلبيّة للنظام السلطوي «الكذب الانتهازيّة، التهديد، الانتهاك... »

كما تعرض لذكر حدث مهم مرّت به الجزائر والمتمثل في الإنقلاب العسكري على الرئيس الراحل "أحمد بن بلة" 19 جوان 1965 وهو التاريخ ذاته الذي فتح الباب بمصرعيه على ما يعرف بالتعدديّة الحزبيّة، واللافت للانتباه أن الكاتب لم يتتبع حركة الشخصيات السياسية من البداية كما أنه لم يتعمق في رصد سلوكاتها وأفعالها التي تثبت فسادها ،بل اكتفى بذكر بعض الصفات التي تكشف عنها، وقد يرجع ذلك إلى خوف الكاتب وتفادي الرّقابة السلطوية أو للضرورة الفنيّة حتى لا يفقد النّص بريقه الإبداعي وجماليته الفنيّة.

فسؤال الهوية هنا متشابك ومتعدّد المعاني لأنه سليل عهد الثورة يصعب فهمه في عهد الاستقلال، ولهذا جاء الرّد بالكتابة على مرض النظام من جهة وهدر التاريخ من جهة أخرى معبرا بذلك عن موقف هذه الهوية وموقعها داخل المجتمع.

3ــ الهوية والتراث:

تقوم ثقافة كل أمّة على مجموعة من الركائز وبإختلافها تختلف الأمم وتتميّز عن بعضها البعض، ومن بين هذه الثوابت نجد: التراث الذي يمثل: « عادات وتقاليد وتجارب وخبرات وفنون وعلوم لدى شعب من الشعوب، وهو جزء أساسي قوامه

[1] كولونيل الزبربر: لحبيب السائح: ص ص 256، 257.

الإجتماعي والإنساني والسياسي والتاريخي والخلقي، يوثق علاقته بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوينه وإغنائه»[1].

والمتمعّن في نصّ المدوّمة يدرك جيّدًا طبيعة الشخصيات التي وظّفها الكاتب، ومن بين هذه الشخصيات نجد "جلال" فهي شخصية متوترة تعيش حالة من الضياع والتشتت بين فكرتين، فمن جهة تحاول التّمسك بعاداتها وتقاليدها المكوّنة لهويتها الجزائريّة الأصلية، ومن جهة أخرى تعيش حياة مريرة خلّفها مجتمع متوتّر ممزق الأطراف.

ومن مظاهر تمسكها بعاداتها وتقاليدها ذكره اللباس التقليدي الذي يميّز المرأة الجزائريةّ، تلك الهيئة التي تنفرد بها عن بقية نساء العالم: « في الحوش، رأى الطفل أمه في عباءة عرسها البيضاء، بحزام صوفي مرقوم بألوان سوداء، حمراء وصفراء بأهداب في أطرافها أقحوانات بيضاء»[2].

تلك الهيئة التي فُتنت بها المرأة الغربيّة فأصبح همَها الوحيد تقليد المرأة الجزائريّة في اللباس، ويظهر ذلك من خلال شخصيّة " فرانسواز" زوجة الطبيب الجزائري "طاهر السنوسي" و يظهر ذلك في قول الطاوس : «متقدّمة بلباس الخرجة الدزيري التقليدي، كاد لا يتعرَف عليها لولاء أنها نزعت العجار وفتحت الحايك على صدرها... بشدة العصابة الورديّة على الرأس الم فوق الشعر وخيط الرّوح الفضي على الجبين والقميص بالمجبود والفوطة تحتها سروال التكة والخلخال والبليغة... »[3]

---

[1]ــ المضامين التراثية في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين الموحدين: جمعة يوسف الجبّوري، دار الصفا للنشر والتوزيع ــ عمّان ــ الأردن، ط1، 2012، ص22 .

[2]ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح، ص29.

[3]ــ المصدر نفسه ،ص189.

وكما لم تغفل الرّواية وصف صورة الرّجل الجزائري يوم عرسه وتجسّد ذلك من خلال ذكر ا لطاوس لهيئة والدها أثناء زواجه "بباية": « يتميّز منهم بسرجه الجلدي المذهّب الحواشي على صهوة حصان والده الأدهم، ببرنوسه العسلي بعمامة صفراء محتذيا خفًا جلديا في ركابين فضيين، حاملا لمكحلة»[1]

فالمظهر الخارجي والمتمثل في "اللباس" يمثل أهم مميزات الهويّة الجزائريّة لأنه عبّر وبصدق عن روح الجماعة التي تعيش في صراع دائم بين حاضر مخيّب للآمال وماض مليء بالإنتصارات ومن بين النمادج التراثية التي تعرّضت لها الرّواية نجد: حضور الأغنية الشعبية، والتي تمثل «آلية من الآليات التعبيريّة التي تنطلق من فكرة المشافهة الثقافيّة»[2]

ومثال ذلك الأغاني التي ميّزت الأعراس الجزائريّة كقول النّسوة:« يا جلال ياجلال، ونقرت البندير "العرس راكب خويا ما جاش، وينكم يانسا احكموا الراس»[3]

وردت معظم ألفاظ هذه الأغنية بالعاميّة المتداولة في الأوساط الجماعيّة، وهي أغنية جسّدت خصوصية من خصوصيات المجتمع الجزائري خاصة إذا تعلّق الأمر بالعرس الجزائري،وهذف الكاتب من إبراز هذه الخصوصيات او السمات الثراثية،هو ابراز أصالة شخصيات الرواية خاصة شخصية جلال.

ومن ملامح حضور التراث الشعبي في الرّواية نجد بروز القصيدة الشعبيّة، إذ يعبّر كل بيت من أبياتها على موقف من مواقف الشخصيات، ومن بين هذه المواقف تمسك الشخصيات الموجودة في الرواية بالوطن ويظهر ذلك في المقطع التالي:

---

[1]ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح ،ص295.

[2]ــ التراث والشّعر ــ دراسة نصيّة في تجليات البطل الشعبي، إبراهيم ملحم، عالم الكتاب الحديث ــ إربد ــ الأردن، د ط، 2010، ص16.

[3]ــ المصدر السابق، ص33.

« هذا وطنْكْ ولاّ جيتْ برّاني يا راسْ بْنَ ادم لله كلّمني»[1]

يعكس هذا المقطع الشعبي أحد أهم الخصوصيات التي تميّز الفرد الجزائري وهي "الإنتماء" وأحقيته في أن يكون وريث لأحداث ماضية، ذلك الإنتماء الذي يشعره بالانضمام إلى جماعة واحدة ومنطلقات تراثية مشتركة وما على الفرد إلا التمسك بهذا المبدأ الذي يحدّد هويته الفردية.

4- علاقة الهوية بالسّرد:

تؤرّخ رواية "كولونيل الزبربر" لرحلة ثلاثة أجيال متعاقبة، جيل الثورة "مولاي بوزقزة" وجيل الاستقلال "جلال" وجيل العشرية "الطاوس" ، وبالتالي فأحداث هذه الرّواية ترصد مسيرة الهوية وتنقلها عبر الأجيال، فبالنظر إلى طبيعة أحداث هذه الرّواية نجدها تنطلق من الحالة الصحيّة الصعبة التي وصل إليها "مولاي بوزقزة" فهذه المرحلة الصعبة من حياته دفعته إلى تدوين مذكراته وتسليمها للإبنه "جلال " حيث استرجع فيها ماضيه المليء بالحزن والأسى كما أفصحت عن بعض الأحداث الماضوية التي تركت حزنا كبيرا على ذاكرته، وهذا ما نستشفه من خلال قول جلال :«لحظة تأمله الآن، داخل الكازمة المعتمة، في ما سيكون عليه يوم آخر من أيام الإصرار والخوف، استوطن نفسه صوت قدر في الفجر جدده لنفسه، قاله لمسؤولي أفواج فصيلتة "حرب ذات طبيعة ثوريّة فرضناها على العدو فرضًا، نعاهد على أن تظل مشتعلة بأجساد الرّجال والنساء، فلا مخرج منها صار ممكنا غير حسمها بما مات عليه رفقاؤنا" ثم أصدر إليهم، "إنها أوامر القيادة سننفد المهمة»[2].

[1]ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح ، ص66.

[2]ــ ، المصدر نفسه ص ص 61 ،62.

شكل هذا المقطع السّردي مرحلة صعبة من حياة "بوزقزة" والمتمثلة في توليه للقيادة الثورية وتحمله لكافة المهام وذلك دفاعا عن مقدّسات الوطن كالهوية أو الإنتماء الجغرافي ويظهر ذلك من خلال المصطلحات التالية(مشتعلة، نعاهد، مات عليه رفقاؤنا).

ويواصل جلال سرد قصة والده مستحضرا لبعض ممارسات المسؤولين الثوريين والمتمثلة في أطماعهم الدائمة للانفراد بالقيادة السياسية وذلك تلبية لمطالبهم الانتهازية وهو في نظر "بوزقزة" أمر لابد من القيادة العسكريّة ردعه لأنه يسبب العجز والوهن للثورة، وهذا مانجده في قول جلال : «فشكه في هانس ظل مثل دودة، يأكل من مخه إلى أن تخلص برفع هذا إلى قائد الولاية إن كانت هناك سلم يريدها الجنرال فهي التي تحقق بإرادتنا. وإن وجد الشجعان يعرفهم الجنرال فهم من لن يضعوا السلاح أبدا إلى ببلوغ حربنا التحريرية غايتها واجدا إياها خيانة التفاوض مع السلطة الاستعمارية بشكل انفرادي ومن غير موافقة القيادة السياسية، مهما تكن رتبة المفاوض ومسؤليته. ».[1]

فرغم الحالة المرضية: " لمولاي بوزقزة" إلا أن تاريخ الجزائر لم يغب عن باله، وبقيت ذاكرته نشطة تحْفظ الكثير من الصور التي تحمل ماض ترك آثارًا حزينة على نفسيته، ويظهر ذلك في قول "جلال" « ترسبت في ذهنه كمّا أكبر من الصور والمشاهد والحكايات عن جنود من الأقارب أو الجيران من المتزوّجين منهم خاصّة أولئك الذين بدّلوا نساءهم أو أضافوا إليهن، والذين استولوا على سكنات ومحلّات وعلى أراضٍ أيضا والذين بسطوا في دواويرهم ومداشرهم نفوذًا لا يختلف عن سيطرة القيادة والشنابط، ومن تولوا المسؤولية في الإدارات والمحاكم ومخافر الشرطة»[2].

[1]ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح، ص70.

[2]ــ المصدر نفسه، ص ص 25 ،26.

فحديث "مولاي بوزقزة " عن هذه الشخصيات الانتهازية فتح له جرحًا عميقا كان يتوارى وراء جسده الهزيل فكأن دخوله للمستشفى بعد شقاء وبؤس كبيرين عاشهما جعلاه يفصح عما يختلج صدره من آلام ومآسي، تلك المآسي نجد صراعه مع الجبل الذي لا يرى فيه سوى حيز رهيب يفترسه التناقض وتتقاسمه أفكار متضاربة وتتفاعل معه معطيات متنوعة لا ترتبط بالمنابع الأصلية في النفس الإنسانية ومدى تمسك الهوية بالمكان، ويظهر ذلك في قول الطاوس: «ملأت عيناه آثار العنوان الذي كان مر من هنا أو هناك فجعل مصير الأهالي آلاما وبدل وجه هذه الأرض يبابا، في كل مكان منها يكاد لايسمع غير الصمت الناحب من كل بيت مهدم أو قائم أخلي منه قاطنوه ، إلا التوجع النابع من قلب هذه السهول المترامية مدى البصر إلى سفح جبل الزبربر ،الذي لقصف قلبه بالنابالم بدا اخضرار جنباته ذاويا ؛كأنما حزنا أيضا على طيور الحجل والحمام واليمام ... »[1] استطاع السرد في هذا المقطع أن يغوص في أعماق الشخصية ويكثف من همومها الداخلية وذلك بالإشارة إلى حجم المعاناة التي عاشها بوزقزة في فترة الثورة ، وبالتالي فهذا المقطع السردي جسد لنا واقع الهوية وما تعانيه من التشتت والضياع ويظهر ذلك من خلال التشبيهات الدالة على حالة الحزن التي تعم المكان ليرسم بذلك صورة تراجيدية تعبر عن واقع الهوية المستلبة في ظل وجود آخر براغماتي

وتجليات مأساة الماضي شملت كذلك "ابن جلال" هذا الأخير وجد في ابنته "الطاوس" ملاذه الوحيد في كشف بعض الأحداث الخفية التي غيّبها التاريخ الرّسمي،وهي أحداث نلمح ظهورها في "فلاش ديسك" ويتجلى ذلك في قول "الطاوس": « " طاوس، تعالي ! فسارعت أنزل متوقعة أنه سيقول لي أنه يعرف أني كنت أرقبه من الشرفة، وجدته في المكتبة واقفا ينتظرني رازني بعتاب عابر، كأني تأخرت عنه

1 - كولونيل الزبربر: لحبيب السائح،ص 168

سلّمني بشماله مفتاح "فلاش ديسك"،نطق "تجدين فيه ملفًا واحدا مهمًّا"، وتبسم " ذلك ما يمكن أن ترثيه مني"»[1]

من خلال هذا المقطع نلمح أن الفلاش ديسك يحتوي على ملف واحد يتعرض فيه لجملة من الأحداث المؤسفة التي اعترضت سبيله في زمن العشرية السوداء فهي أحداث تلاحقه أينما حل منها استرجاعه لأصعب مرحلة من مراحل حياته والمتمثلة في تواجده بجبل الزبربر وذلك دفاعا عن قداسته بعدما دنسته أفكار التطرف.

ويظهر ذلك في قول الطاوس: « كان الصمت امتصّ إلى عمقه كل حركة، حتى حفيف الأشجار، وأصوات الطيور في الجوار، لما نطق القائد للذي كان يخرج بالكاد من روع المباغتة الماحقة "أحب أن أناديك السيد لحمر زغدان، أما أبو حفص فمتروك لإمارتك الوهمية ! وقال له "مثلك يُدنّس تراب هذا الجبل وغابته ومغاراته المعطرة بدم الشهداء الزبربر كان حضناً لمن أخرجوا ملّة أمثالك من هوان المستعمرين ! »[2].

يحضر المكان "الجبل "داخل البناء السردي للرواية على أنه رمز الارتفاع والصلابة والشموخ ، فهو ملاذ الجزائريين أيام الاستعمار ، لكن السنوات السوداء التي تلت مرحلة الاستقلال دمرت وعصفت هذه الرمزية محطمة القداسة التي كانت تلفه ، وبذلك تحول من مكان يدافع عن حرية وشرف هذا الوطن إلى وكر يحمي أشخاص يدعون عقيدة اللاعقيدة

عند قراءتنا لهذا المقطع السّردي نشعر بطبيعة البناء اللّغوي للرّواية فهو بناء جسّد لنا انتقال الهويّة من مرحلة الاستقرار إلى مرحلة الضياع أثناء العشرية السوداء فالسرد هنا صار كنوع لتأكيد الذات ومدى تمسكها بهذا المكان محاولة بذلك إسترداد هويتها

[1]ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح، ص ص 25،26.

[2]ــ المصدر نفسه ، ص227.

الضائعة في ظل وجود آخر متطرّف يحاول طمسها وتغييرها « فالإنسان يتشكل من حيث هو ذات في اللّغة وباللغة، إذ هي وحدها التي تؤسس في حقيقة الأمر لمفهوم "الأنا" ضمن واقعها الذي هو واقع الوجود»[1].

فبناء المكان داخل الرّواية خاضع للتمثّل الفني للواقع الذي امتلكه الكاتب معرفيا وجماليا محاولا بذلك بيان الانتماء القومي والاجتماعي للفرد الجزائري وصراعاته الدائمة في استرجاع هويته الضائعة.

كشفت رواية "كولونيل الزبربر" عن ظاهرة مهمة متمثلة في كيفية تسريد الهوية ونقلها عبر الأجيال، ويظهر ذلك من خلال الموروث السردي الذي تركه الجد "مولاي بوزقزة" لابنه "جلال"وانتقالا بذلك "للطاوس"بهدف استنطاق بعض الجوانب التاريخية المسكوت عنها والمغيبة في التاريخ الرسمي ، بحكم أن "بوزقزة " لايستطيع نقل مايقع خارج القانون في فترة الثورة بدافع واجب التحفظ والإبن كذلك بحكم واجب السرية لتأتي شخصية الطاوس ويتجسد دورها في رصد مسار الهوية وتنقلاتها من الثورة إلى الإستقلال إلى زمن العشرية السوداء معتمدة في ذلك على السرد كإطار فني لهذه الهوية.

[1] ــ الهويّة والسّرد بول ريكور: حاتم الورفلي، ص54.

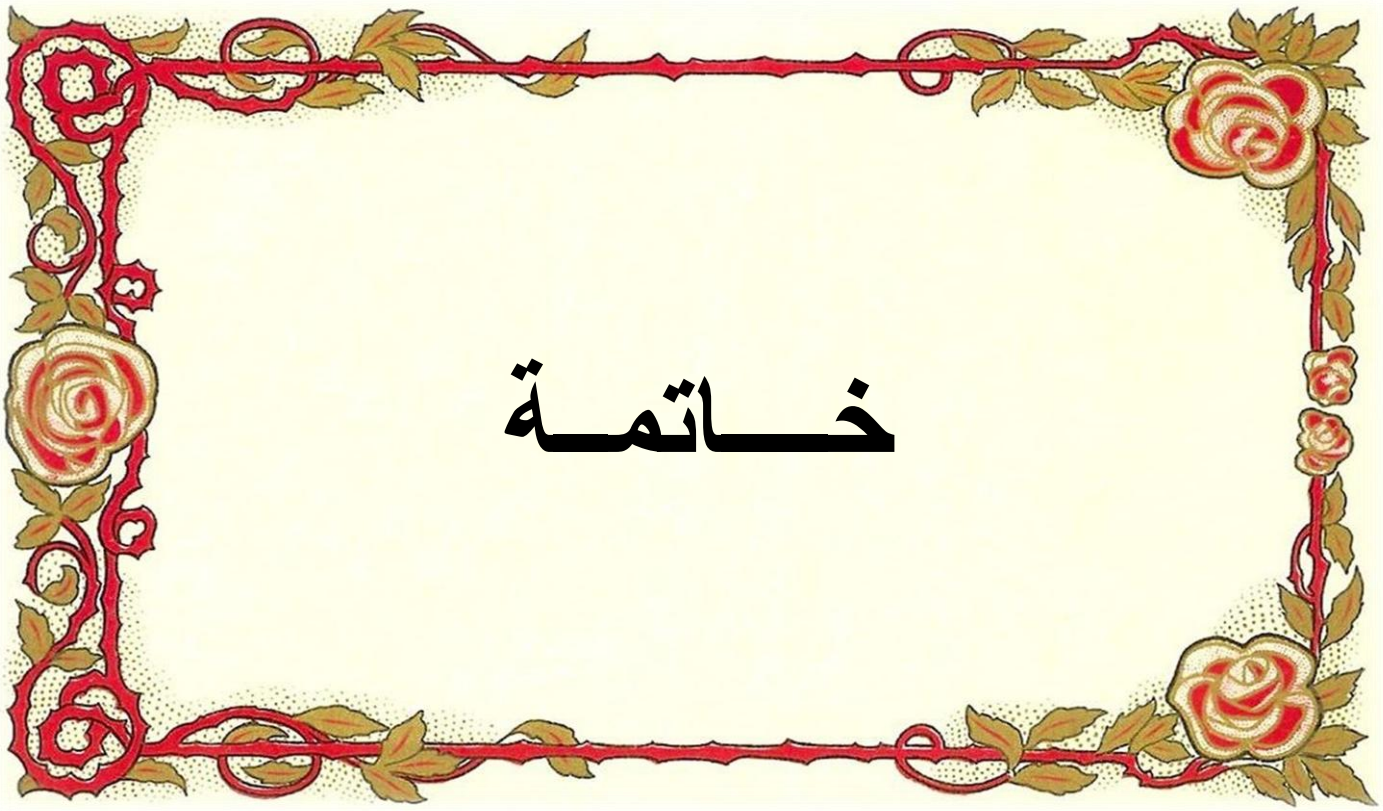
خـــاتمــة

خاتمة:

إن خاتمة هذا البحث هي آخر محطة أقف عندها، حاملة معها الأسطر الأخيرة التي أردت أن تكون كنتائج مختصرة لأهم النقاط التي سمحت لنا هذه الدّراسة التوصل إليها:

ــ تركيز الكاتب على إبراز الأعماق النفسية للشخصيات ليكشف بذلك عن الواقع المّر الذي يتخبطون فيه.

ــ اتضحت السياقات الإيديولوجية في رواية " كولونيل الزبربر" عبر نمطين من السياقات، سياق نفعي براغماتي يسعى إلى السلطة والحكم وسياق الرّفض والتعبير الذي مثلته شخصيات ثورية وأخرى مثقفة.

ــ إن العلاقة بين الإيديولوجيا والرّواية هي علاقة تلازم، لأن الرواية تهتم بالبنية اللغويّة بينما تهتم الإيديولوجيا بالبنية الفكرية للنّص.

ــ رصدت لنا الرّواية أشكال الإنحراف عشية الاستقلال والانقلاب على مبادئ الثورة وفي ذلك نظرة مغايرة وجريئة من الرّوائي إزاء هذه الثورة التي لغتها هالة من التقديس لفترة من الزمن.

ــ فضل الكاتب العودة إلى ذكر أمجاد الماضي بهدف تقديم صورة عن الوطن وما لحقه من خراب في عهد الإستقلال راصدا بذلك أهم العادات التي تميز المجتمع الجزائري وهي عادات تمثل أهم ركائز الهوية.

ــ عند بحثنا لعلاقة الرّواية بالإيديولوجيا تبيّن أنه لا يوجد نص إلا ويكون مطعما بمنظومة قيميّة تحدد من ضمن ما يحدده السياق الثقافي العام المولد للنّص، كما تحدد

الإيديولوجيات المتصارعة على جسد الرّواية ما يسمح بإيهام القارئ بواقعيّة الأحداث المرويّة.

ــ إستطاعت الرّواية أن تعكس صورة الواقع الاجتماعي والسياسي والتاريخي، بإعتبار أن الكاتب إنطلق من الواقع لرسم وبناء الأحداث، فجاءت هذه الرواية عاكسة للتحوّلات والتغيّرات التي أصابت المجتمع لتدل بذلك عن واقع مأساوي مرير سيطرت عليه تيمة الإيديولوجيا بما تحمله من آثار الظلم والتعصّب.

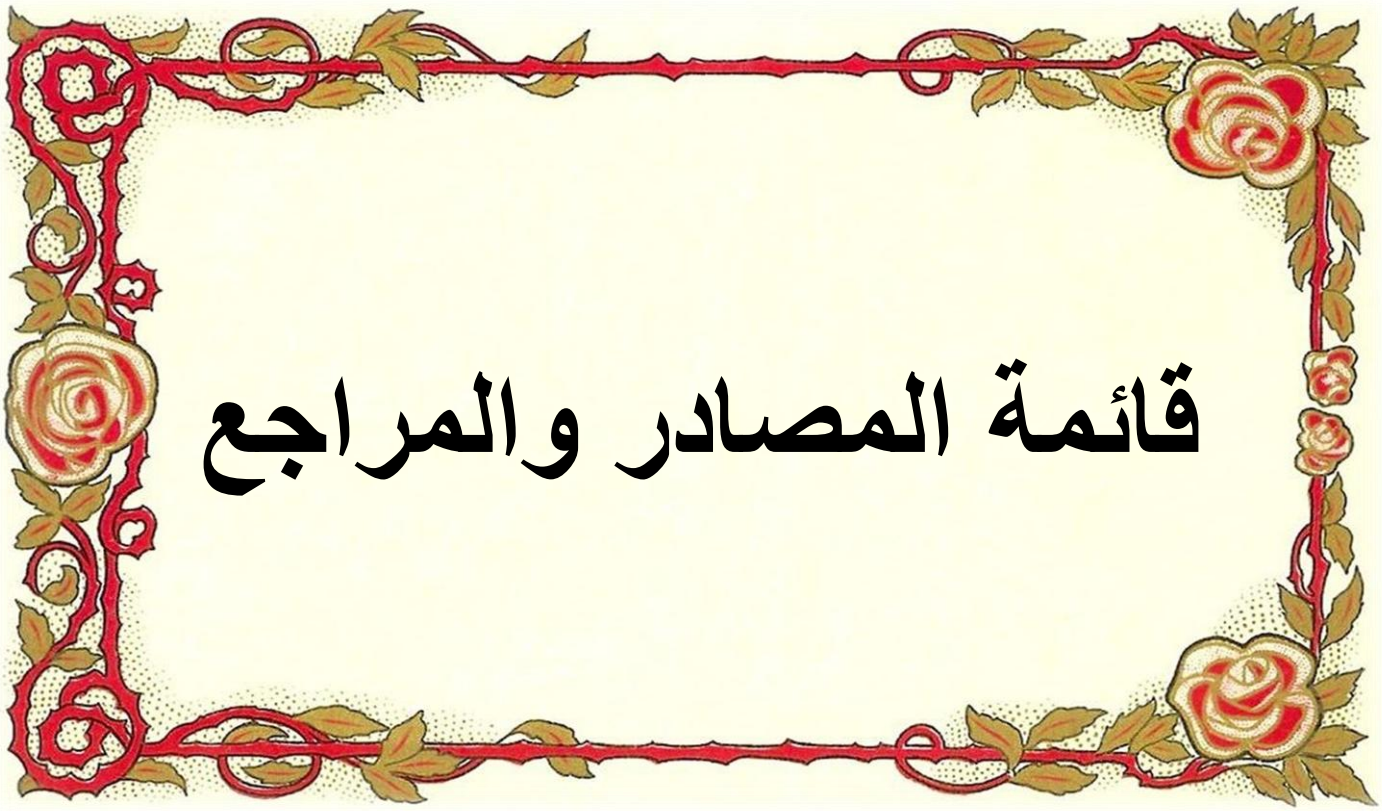
قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

أوّلا: المصادر.

1ــ كولونيل الزبربر: لحبيب السائح، دار الساقي ــ بيروت ــ لبنان ، ط1 ، 2015.

ثانيا: المراجع.

1ــ التراث والشعر ــ دراسة نصيّة في تجليات البطل الشعبي: إبراهيم ملحم، عالم الكتاب الحديث ــ أربد ــ الأردن، دط، 2010.

2ــ اللغة والهوية في الوطن العربي ــ إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية: أمحمد جبرون وآخرون، مركز الأبحاث ودراسة السياسات ــ بيروت ــ لبنان، ط1، 2013.

3ــ أزمة الإيديولوجيات السياسيّة: أمين حافظ السّعدي الهيئة العامة لقصور الثقافة ــ القاهرة ــ مصر، ط1، 2014.

4ــ الاستعمار والإسلام: أنور الحنبيدي، دار الأنصار ــ القاهرةــ مصر، دط، د ت.

5ــ المضامين التراثية في الشعر الأندلسي: جمعة يوسف الجبّوري، دار الصّفا للنشر والتوزيع ــ عمان ــ الأردن، ط1، 2012.

6ــ مفهوم المدينة في كتاب السياسة لأرسطو: حاتم النّقاطي، دار الحوار للنشر والتوزيع ــ اللاذقية ــ سوريا، دط، 1995.

7ــ الهوية والسّرد بول ريكور: حاتم الورفلي، دار التنوير للطباعة والنشر ــ بيروت ــ لبنان،ط1 ،2009.

8ــ الهوية: حسن حنفي حسنين، المجلس الأعلى للثقافة ــ القاهرة– مصر، ط 1 2012.

9ــ الإرهاب والتطرّف من منظور علم الإجتماع: حسين عبد الرحمان وأحمد رشوان، مؤسسة شباب الجامعة ــ الإسكندرية ــ مصر، د ط، 2002.

10ــ النقد الرّوائي والإيديولوجيا: حميد الحميداني، المركز الثقافي العربي ــ بيروت ــ الدار البيضاء، ط1، 1990.

11ــ تفسير مسار التاريخ: رأفت الحاج، عين للدّراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ــ القاهرة ــ مصر ، دط، 2000.

12ــ الإيديولوجي والفني ــ مقاربة بنيوية تكوينية في روايتي "اليتيم والفقير" لعبد الله العروي: سعيدة جلايلية، عالم الكتب الحديث ــ أربد ــ الأردن، دط، 2014.

13ــ النخبة والإيديولوجيا والحداثة في الخطاب الرّوائي العربي المعاصر: سعيد شبّار، سلسلة دراسات المعرفة والحضارة ــ الدار البيضاء ــ المغرب، ط2، د ت.

14ــ الكلام والخبر ــ مقدمة للسرد العربي : سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي ــ بيروت ــ الدار البيضاء، ط1، 1997.

15ــ الرّواية والعنف: شريف حبيلة، عالم الكتاب الحديث ــ أربد ــ الأردن ، ط 1 2010.

16ــ دفاعا عن المادية والتاريخ ــ مداخلة نقدية في تاريخ الفلسفة الحديثة المعاصرة: صادق جلال العظم ، دار الفكر الجديد ــ بيروت ــ لبنان ، ط1، 1990.

17ــ الرّواية السياسية: طه وادي ، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ــ القاهرة ــ مصر، د ط، د ت.

18ــ مفهوم الايديولوجيا: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط 5، 1993.

19ــ الخطاب السّردي في الرّواية العربيّة : عدنان علي محمد الشريم، عالم الكتب الحديث ــ أربد ــ لبنان ، دط، 2015.

20ــ الإيديولوجيا وبنية الخطاب في روايات عبد الحميد بن هدوقة: عمر عيلان، الفضاء الحر، د ط، 2008.

21ــ التجربة الرّوائية المغاربيّة ــ دراسة في الفاعليات النصية وآليات القراءة : فتحي بوخالفة، عالم الكتاب الحديث ــ أربد ــ الأردن ، د ط، 2010.

ثالثا:الكتب المترجمة:

22ــ الزمان والسرد: بول ريكور، تر: سعيد الغانمي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2006.

23ــ محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا، بول ريكور، تر: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة ــ بيروت ــ لبنان، ط1، 2002.

24ــ الإيديولوجيّة: دفيد هوكس، تر: ابراهيم فتحي، المجلس الأعلى للثقافة، د ط 2000.

25ــ الإيديولوجيا: تر محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ــ المغرب، ط2، 2006.

26ــ الخطاب الروائي: ميخائيل باختين، تر: محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر القاهرة، مصر، ط1، 1987.

رابعا: المعاجم.

27ــ المعجم الفلسفي: إبراهيم مذكور، الهيئة العامة لشؤون المطابع ، القاهرة، مصر، د ط، 1989.

28ــ معجم الرّائد: جبران مسعود، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط7، 1992.

خامسا: المذكرات:

29ــ حداثة السّرد والبناء في رواية "ذاكرة الماء" لوسيني الأعرج : آمال السّعودي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب واللغات، محمد بوضياف ــ مسيلة ــ 2007 -2008.

30ــ الهوية والإختلاف في الرّواية النسوية في المغرب العربي: سعيدة بن بوزة، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي الحديث، كلية العلوم الإنسانيّة، جامعة محمد خيضر ــ باتنة -2007 ــ 2008.

31ــ النسق الإيديولوجي وبنية الخطاب الرّوائي ــ دراسة سوسيوبنائية لرواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي : سليم بركان، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب واللغات محمد بوضياف ــ مسيلة ــ 2003 -2004.

32ــ الإيديولوجيا واليوتوبيا في الأنساق المعرفية المعاصرة ــ دراسة مقاربة بين كارل مانهايم وتوماس كون: عبد الله عبد الوهاب الأنصاري، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب واللّغات، جامعة الإسكندرية، 2000.

33ــ البطل السجين السياسي في الرّواية العربيّة المعاصرة: علي منصوري، مذكرة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الأدب الحديث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر ــ باتنة ، 2007 ــ2008 .

34ــ الكتابة الرّوائية النسوية العربيّة بين سلطة المرجع وحرية المتخيل: بايزيد فاطمة الزهراء، بحث مقدّم لنيل درجة دكتوراه دولة العلوم في الأدب العربي الحديث، كلية الآداب واللّغات، جامعة الحاج لخضر ــ باتنة ــ 2011 ــ2012 .

35ــ سيمياء الإيديولوجيا في روايات محمد ساري : كمال راجعي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة الحاج لخضر ــ باتنة ــ 2013 ــ2014.

36ــ إشكالية الهوية والمغايرة في الفكر العربي المعاصر: محمد نور الدين جياب، مذكرة لنيل درجة دكتوراه دولة في الفلسفة كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية ــ جامعة الجزائر ــ 2005 ،2006.

سادسا: المجلات:

37ــ عراق الهوية النسقية: اسماعيل نوري الربيعي، مجلة الكوفة، العدد 4، خريف 2013.

38ــ إدارة النظام السياسي للعنف في الجزائر 1988 ــ 2000، بوشنافة آمال، آدم قبي، مجلة الباحث، العدد 3، 2004.

39ــ النسق المجتمعي وأزمة الهويّة: خالد حامد، مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعيّة جامعة تبسة، العدد 1.

40ــ خصائص الفعل السردي في الرّواية العربيّة الحديثة، بعيطيش يحي، مجلة كلية الآداب واللّغات، جامعة منتوري ــ قسنطينة ــ الجزائر ، العدد 8، جانفي 2011.

الفـــهرس

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	**أ ـ د**
الفصل الاول:	**28-6**
المبحث الأول:الإيديولوجيا	**6**
1:مفهوم الإيديولوجيا	6
أ/ البدايات الأولى للمفهوم	6
ب ــ المفهوم الماركسي للإيديولوجيا	8
د – المفهوم السيوسيولوجي للإيديولوجيا (كارل مانهايم)	8
ج– المفهوم العربي المعاصر لإيديولوجيا	10
2– علاقة الإيديولوجيا بالسياسة	10
3–علاقة الإيديولوجيا بالرّواية	11
المبحث الثاني:الهوية	13
1–مفهوم الهوية	17
2– علاقة الهوية بالإيديولوجيا	20
3– علاقة الهويّة بالسّرد	20
	23
	26
الفصل الثاني:	**(62–30)**
المبحث الأول: دراسة البعد الإيديولوجيّة في الرّواية:	30
1– البعد الإيديولوجي البراغماتي (النفعي)	30
2– براغماتية السلطة	36
3– البعد الإيديولوجي الوطني الثوري (إيديولوجية الرّفض والتّغيير)	40
المبحث الثاني: تمظهرات الهويّة في الرّواية	47
1–الهويّة والتاريخ	

2-الهوية والإيديولوجيا	47
3ــ الهوية والتراث	53
4-الهوية والسّرد	55
خاتمة.....	58
قائمة المصادر و المراجع.....	65-64
الفهرس.....	71-67
الملخص.....	74-73

الملخص

رصدت رواية "كولونيل الزبربر" للكاتب الجزائري لحبيب السائح مسارات التحول المختلفة المليئة بالصراعات السياسية و الإجتماعية من زمن الثورة التحريرية الكبرى إلى زمن التشييد والبناء وإلى غاية انسداد الأفق السياسي ودخول الجزائر في أزمة قاتلة ،وما خلفته هذه الأزمة من صراع دموي طاحن استغرق عقدا من الزمن وما زال إلى اليوم ولهدا فقد اخترت بحث بعنوان "الصراع الإيديولوجي وسؤال الهوية" كموضوعا لرسالة تكميلية لنيل درجة الماستر في الأدب العربي ،فجاء هذا البحث في مقدمة وفصلين وخاتمة قدم الفصل الأول مفاهيم حول الإيديولوجيا(منظور ماركسي وسوسيولوجي وفي النقد العربي) ثم انتقلت إلى دراسة علاقة هذا المصطلح بالخطاب الروائي والخطاب السياسي كما تعرضت كذلك إلى ذكر بعض مفاهيم الهوية و علاقتها بالإيديولوجيا و الخطاب السردي

بينما خصصت الفصل الثاني لرصد السياقات الإيديولوجيا التي تعرضت لها المدونة ممثلة في السياقات الإيديولوجيا النفعية وسياقات الرفض و التغيير، مبرزة أيضا أهم مقومات الهوية الجزائرية كالتاريخ والعادات والتقاليد بالإضافة إلى إبراز القيمة الجمالية التي يضيفها السرد الروائي على الهوية، أما الخاتمة فقد تعرضت فيها لأهم النتائج التي توصل إليها البحث

الكلمات المفتاحية:

ــ الهوية

ــ الإيديولوجيا

ــ لحبيب السائح

Résum:

L'ecrivain algérienne lahbib asaih et tacheté dans la roman « colonel zbarbar » ,plusieurs chemain de transformation qui et plein de conflits politique et social .de l,epoque de la grande révolution libertaire passant sur la période de construction et traveaux.au periode de conflits sanglant qui adurè une décennie jusqu'a present.c,et pour ça Jai choisisse titre de mon recherche(ALADIOLOGI ET LA QUESTION DU CONFLIT D ,Identité) comme un sujet complimentaireque je parle dans ma lettre du master sur la littérature arabe

cette recherche contient une introduction et deux chapitre et une conclusion.

Chapitre un contient-concepts sur l.idèologi(point de vue marxiste et sociologique et Arab Aangd),et puis j,ai étudié la relation entre ce terminologie et le discours romancier et le discours politique, âpre j.ai discuté sur le concepts d.identitè et ça relation avec l.idiologi et le discours narratif.

Le deuxième chapitre cè les contextes a ladiologgia.a la fin j.ai parlé sur les meilleur résultats de cette recherche.

Les mots clés :

- l'identité
- ladiologgia
- lahbib asaih